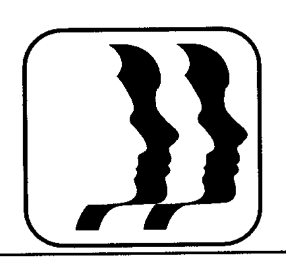


الشبيه

مجموعة قصصية

أحمد فؤاد قامش

الشبيه

أحمد فؤاد قامش
الطبعة الأولى ٢٠١٣

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع

المدير العام : هبة الشرقاوي
موبايل : ٠١١٤٠١٧٨١٤٤
darrawaa@yahoo.com

الاخراج الفني
أيمن دويدار

الغلاف
عبد الرحمن حافظ

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٥٣٢٢

الترقيم الدولي
٩٧٨-٩٧٧-٦٤١١-٣٠-٢

إهداء

الآن وبعد أعوام كثيرة ... تغازلنى ذكرى جدتى وهى تقف عند عتبة بابها...أذكر وداعى لها قبل رحيلى إلى الأسكندرية...
وأتساءل: ماذا كنت فاعل لو علمت أن تلك هى المرة الأخيرة التى سأراها فيها إلى الأبد؟!.
وأنها ستتركنى الآن ليس لتناول فطور الصباح.....
ولا للجلوس من أجل فنجان قهوة .....
وإنما لتودع روحها إلى غير رجعة!.....
وأنا أطبع قبلتى الأخيرة على جبينها كنت أعتذر لها عن إجتماع العائلة فى الغد وأعدها بأن ترى صور حفل تخرجى بعد أن أعود.
أقسم بالله أن وجهها كان عادياً للغاية!...وأن فكرة الموت فى رأسى لم تكن ذات بال!.
وأنا أقبلها لم أكن أستشعر شيئاً من هذا ولم أكن أعرف أن الموت هو زائرها الثقيل الآن!.
هل كانت هى تعرف؟!.
اليوم وأنا أسطر الخطوط الأخيرة لكتابى الأول تمنيت وجودها.
كانت ستسمعنى وأنا أقرأ قصصى على الملأ كعادتها دون إعتراض
ستخاف جنونى.... وتوبخنى لأجل بعضها...
ولن تعرف بأنى كنت أسرق حكاياتها لأحشو بها أوراقى! , وأنى كل هذا الوقت لم أكن أكتب إلا مايملية على خيالها!.
هى التى علمتنى أننا لا نكتب سوى ماضينا وأن الذى يذهب لن يعود , والحى أبقى من الميت , والذى يدفن فى طين الأرض يخلد إلى آخر العمر...ولهذا كانت تحكى , ولهذا كانت تسامح ولهذا أيضاً كانت تدفن قصاصات الشعر وقلامات الأظافر فى إصيصة صبار يتيمة لديها.
فإلى جدتى التى تهدر روحها فى نبات الصبار ببيتنا القديم..
هم يتهادون بالورود أو قوالب الشيكولاته أما أنا فأهاديك بالكلمات....إليك كتابى الأول.

أحمد فؤاد قامش

رواية فرج

السابعة صباحاً

قبل أن يلمس شعاع الشمس ناصية الشارع ، مع تثاؤب الكلب الراقد أمام المقهى، يظهر شبح المعلم رمضان عند الناصيه فى جلبابه الفضفاض، يلكز الكلب الراقد بطرف حذائه فيند عنه نحيب مكتوم وسعار حاد، بالكاد يرفع باب الدكان مصدراً أزيزاً مزعجاً يشق سكون الصباح ، لحظات ويعلو الراديو بصوت الشيخ الشعشاعى، يشمر المعلم جلبابه ، ترص الكراسى،يشتعل الموقد، تسمع جرجرة جوال الفحم إلى جواره، ينطلق خرير حنفية النصبة فى الداخل، تكنس المنطقة المحيطة بالقهوة، يشد المعلم من تحت النصبة خرطوم المياه، يرميه فى الخارج ممسكاً بأحد طرفيه.

هذا اليوم، وهو يرمى بطرف الخرطوم رأى وجه الأستاذ فرج فى الخارج ، كان جالساً أمام البيت المواجه للقهوة ممسكاً بجريدة الجمهورية، رمى عليه السلام فى حماس، فرفع فرج عينيه بتكاسل من أعلى النظارة المنزاحة فوق أرنبة أنفه دون حراك، رد السلام

ثم أعاد عينيه نحو صفحات الجريدة

والمعلم لم ينتظر الرد،سحب طرف الخرطوم للداخل رشقه فى حنفية المياه جوار قلل الشيشه ،وبمجرد أن فتح الحنفيه عن اخرها، انطلق صوت فرقعه مدوى من شقة فى الدور الرابع على بعد عمارتين من المقهى!.

■■■■■

السابعة صباحاً

لحظة أن تضاء الصالة عن اخرها من ضوء الشباك، يكون أحمد حافظ قد ارتشف الربع الأخير من كوب الشاى باللبن، ويكون طفلاه التوءم يرتديان حذائيهما قرب باب الشقه استعداداً للذهاب إلى المدرسة، التلفزيون يذيع برنامج (صباح الخير يامصر) لحظات وبشكل متتابع تترامى إليه أصوات منبهات كثيرة من الشقق المجاورة مختلطة بصياح الكلاب فى الشارع ، وصوت مزعج لأزيز الثلاجة.

فى هذا اليوم كان أحمد حافظ مشغولاً بالبحث عن قميص نظيف يرتديه، جال الشقه كلها بالفانلة الداخلية المهترئة، وبنطلون البيجاما،فتش قلب الدولاب، بين الأرفف ثم الشماعة وأخيراً هرول نحو البلكون ،فوق حبل الغسيل،والتقط واحداً نصف مبتل من أثر ندى الصباح، اغتاظ بشدة!،نظر فى ساعته، اكتشف أن عليه كى القميص فى أقل من عشر دقائق لكى يلحق بعربة الشركة!... فرش المصلية فوق السرير على عجل، والتقط المكواة

من فوق رف الدولاب ، وبمجرد أن وضع الفيشة فى قابس الكهرباء، انطلقت فرقعة مدوية من السلك، وإنقطعت الكهرباء عن الشقة كلها، فى غمضة عين توقف أزيز الثلاجه وصمت التلفزيون، وهرولت زوجته مصروعة من الداخل، ولم يبق إلا صوت بكاء الأطفال ذائباً فى ضجيج منبه مزعج من شقة أحد الجيران.

■■■■■

يسمع أحمد طرقات متلاحقة على الباب وهو لم يفق من هول الصدمه بعد.. يفتح الباب ،يفاجئه ظل المعلم رمضان ثم يظهر صوت فرج بمجرد رؤيتة من زاوية الباب: (سمعنا فرقعة من شقتكم.. حصلت مشكلة؟)... أحمد حافظ لا يرد، يشب المعلم رمضان نحو عداد الكهرباء جوار الباب متسائلاً بلهجة جنوبية ثقيلة (عندكم كشاف ياأحمد؟)، يغيب فى الداخل ويعود بكشاف بطارية صغير.

يقول المعلم وهو يسلط الكشاف نحو العداد: (العداد لا يلف، ارفع سكينة الكهرباء ياأحمد)

ويشب فرج بجسده القصير، يرسل عينيه مع نور الكشاف بفضول متمتماً : (الكهرباء فرقعت بسبب حنفية القهوة).

وينفخ المعلم بغيظ دون رد.. تطل وجوه الجيران من بئر السلم بشكل متلاحق، تصعد سيدة بجلباب فلاحى مطرز من الدور الثانى، وأثر النوم فى عينيها، تقول بصوت لا يخلو من حشرجة خفيفة : (الكهرباء قطعت؟)

يرد المعلم رمضان وهو يتراجع للخلف: (الظاهر إن الكهرباء قطعت فى عمارتكم فقط ياحاجة، نور القهوة شغال !).

ويرد أحمد حافظ كالسارح: (وأنا بشغل المكواة، حدثت فرقعة!).

يسحب فرج نظارته من جيب الجلباب، ينظر للمعلم رمضان شذراً فيقول مكرراً بنبرة عالية: رمضان لما فتح الحنفية فى القهوة، حصل الانفجار فى شقتك، تقريباً فيوزات الكهرباء، أو ممكن يكون الخط العمومى.

يرتبك المعلم رمضان، ينتبه إلى أن الواقفين من سكان العمارة قد تكدس بهم السلم وجميعهم ينقلون عيونهم بينه وبين فرج، ثم يصرخ فيه مغتاظاً : (حنفية القهوة مالها ومال شقة أحمد حافظ)

يقف أحمد حافظ حائلاً بينهم ويتبرع أحد السكان مؤيداً لرأى فرج فيقول بأن خط المياه وكابلات الكهرباء يسيران معاً

وسط ظلام بئر السلم تتضارب الأقوال، وتسير الهمهمات، تعلو صيحات البعض، فرج يصر على رأيه، حماسته تزداد فى الحديث، يبدو كالعالم ببواطن الأمور!

احمد حافظ كان مقتنع بحادث المكواة لكن رأى فرج كان أقرب للصواب فى رأى الاخرين، ويستفز ذلك المعلم رمضان جداً، تحمر وجنتيه، وينتفض شاربه من الغيظ ، ينظر لفرج صامتاً وهو مستمر فى حكاية القصة من البداية، كلما لمح ساكنا جديداً.

المعلم رمضان أنكر وجود أى علاقة بين خط الماء والكهرباء كما يدعون، ثم لجأ إلى حيلة أخرى، وهى أن لوكان كلام فرج صحيحاً،

لكان الأولى أن تنقطع الكهرباء عن البيت الذى فيه القهوة أو حتى تنقطع عن الشارع كله ليس بيت أحمد حافظ فقط!.... وتمتم الواقفون على غير هدى، يقول فرج أن خط الماء والكهرباء فقط التابع لبيت أحمد حافظ هو الذى يمر بهذا الشكل وأن البيت الذى فيه القهوة لا علاقة له بخط الكهرباء فى الشارع اصلاً، لأن بيت القهوة تدعمه الكابلات القادمة من الشارع الخلفى، ويقسم فرج امام الحاضرين أن للأمر علاقه بالقهوة ،ويصمت فتنطلق ألسنة الناس موبخة المعلم رمضان الذى يبدو أمامهم كالطفل الذى ارتكب ذنباً، يظل صامتاً يتساند على الحائط بجسده الضخم ثم فجأة يبصق ناحية فرج و يصرخ: (أتفو عليك.. رجل كذاب).

فيسبه فرج ويقول: (وأنت رجل كبير وقليل الأدب).

يتدخل أحمد حافظ ،يشد بجسد المعلم، الذى سرعان ما يرفس فرج فى قصبة ساقه فتسقط النظارة عن أنفه، وتتناقل الشتائم بين الاثنين، المعلم يفك نفسه من قبضة أحمد حافظ ثم يكيل لكمه لصدغ فرج... الناس تتكالب عليه، يسحبونه للخلف، لكن فرج متحامياً فى أجساد الواقفين يصرخ فيه (ياابن الكلب ياواطى)، فينتفض رمضان كالمسعور، يلقى بجسده فوقه، يخنقه... فرج يعضه من أعلى كتفه... المعلم يتملك منه، يسحبه نحو السور حتى يكاد الأثنان أن يسقطا معاً فى بئر السلم لولا أن شد الناس المعلم للخلف!.

وسط صوات النسوة، وعيون الأطفال المحملقة فى فضول، ينجح

أحـمـد حـافظ واخـرون فى تخليص فـرج من بين براثن المعلم، يجـرجـرونه بجسـده الهـزيل إلى داخل الشـقـة المجـاورة، وينتهى العـراك بين الاثنين، يخـرج المعلم رمـضـان من مـدخل العمـارة وهو يعـدل من جلبـابه ويشـوط الأرض بقـدميـه، يبـصق نحو فـرج وهو يردد بصوت جهورى غليظ:(جيران وسخه)

يجلس طوال اليوم يشـرب الشيـشـة أمـام القـهـوة وبالكاد-وسط حراسـة السكان، يخرج فـرج، يلمحـه فيـدير وجهـه الناحيـة الأخرى، ويختفى فرج داخل بيته اليوم بطوله!.

تتناقل الحكاية كاملة بين سكان الشـارع (المعلم رمـضـان لما فـتح حنفية المياة فى القهوة، انفجـرت فيوزات الكهرباء فى بيت أحمد حافظ، وعم فرج لما كشف الحقيقة ضربه المعلم رمضان وكاد أن يقتله)

سينسى الجميع رواية أحمد حافظ وإستنكارات المعلم رمضـان، وسـيتـذكـرون الخناقـة بكل تفـاصيلهـا، وفى كل مـره تسـرد فـيهـا سيلحقـونها برواية فـرج عن كابلات الكهرباء وخطوط المياه، وحين يواجـه الناس المعلم فى البـدء سـيـهـمـل الحـديث عن الموضـوع، سيقولون له أن فرج لا يترك أحداً إلا ويخبـره بهذه الحكاية ويرد المعلم فى كل مره

: اتركوا الكلاب تصيح.

لكن الألسنـة ستتناقل الأمـر فـى أحـاديث السـمـر، والحكاية التى تمت بين سكان العـمـارة، سـتـحكى فـى كل حلقـة رجـال... عند

الناصيه بعد صلاة العشاء... بين الأطفال فى الحوارى... ستصبح حديث النسوة فوق الأسطح، تدور كل يوم حول القهوة، يسمعها المعلم ناقصة أو زائدة... أحياناً لا يكترث وأحياناً يضحك، وسمع مره أناساً يقولون

(المعلم رمضان حاول أن يفصل الكهرباء عن بيت أحمد حافظ فرش المياه على الكابلات ، فإنفجرت فيوزات الكهرباء فى البيت، وعم فرج لما كشف الحقيقة ضربه وكاد أن يقتله)

ورد المعلم بأن هذا كلام فارغ وأن هؤلاء ناس فاضيه وقال أيضاً أنه لم يقصد إيذاء أحد وأنه فى المنطقة من سنين لم يؤذ لا جار ولا عابر سبيل وأن فرج هذا الصعلوك لو قال هذا الكلام فهو كذاب، ويجب أن يتوب عن كذبه ويعود لرشده وصوابه.

شيخ الزاوية حين سمع هذا الكلام أقلقه الأمر، حاول أن يصلح ذات البين بينهم بمساعدة الجيران، أجلس الإثنين فى ساحة المسجد بعد العشاء ففشلوا فى الصلح بينهم وكاد الأمر أن ينقلب مرة أخرى فتشتعل خناقة جديدة بينهم، المعلم رمضان قال لإمام الزاوية وهو ينتعل حذاءه إنه لا يرضيه أن تقال الأكاذيب فى مكان يذكر فيه اسم الله وإن الذين إختشوا ماتوا فعلاً وإنصرف بعدها!.

الناس لم يعجبهم الكلام وحذروا بعدها المعلم رمضان فى أدب من رش الشارع من حنفية القهوه خوفاً من أن يتكرر الحادث مرة أخرى، وبدأ الأهالى يحذرون أطفالهم من الإقتراب من القهوة، وبدأ يتسرب إليهم شعور بأنه طالما أن كلام فرج صحيح فذلك

يعنى أن الحادث قد يتكرر بصورة أخرى ، ربما فى بيت آخر، أو أن الكهرباء قد تصعق طفلاً صغيراً لا حول له ولا قوة وكل ذنبه أنه يلعب فى حنفية القهوة بعيداً عن الأعين، وانتشر هذا التحذير بين أطفال الشارع لدرجة أن الأطفال أنفسهم أصبحوا يهيبون بعضهم من القهوة، ويكررون الحكاية بصور أخرى

(المعلم رمضان عندما يريد العراك مع شخص يكهربه، وعندما أراد أن يتعارك مع أحمد حافظ فجر فيوزات الكهرباء، وعم فرج الرجل الطيب لم يرضه ذلك ، فعرف الأمر ،وفضحه).

فى أيام قليلة إستطاع الأطفال أن يشوهوا الحكاية تماماً، ومع إنتشار الإشاعة الثالثة، انعكس الأمر، الأهالى نقلت الحديث عن ألسنة أطفالهم وردوها إليهم مرة أخرى مؤيدين ، النسوة أنفسهم قاطعوا المعلم رمضان، وكثير من الرجال إمتنع فجأه عن الجلوس فى القهوة، وبذل المعلم جهوداً مضنية لكى ينقذ خسائره دون مصالحة فرج ففشل ! ، حاول الاستعاضة عن ذلك بتكوين فريق خاص يؤيده ضد فرج لكن تجمع له عدد غير كبير وبخسارة إمام الزاوية وتحيزه لفرج خسر أكثر من ثلثى الشارع.. وبدأ المعلم مع الوقت فى إنكار كل ما يقال، ومع الشائعة الثالثة والرابعة وصل به الأمر إلى إنكار حقائق الرواية الأصلية!، قال إن فرج أصلاً كذاب، وأنه فى هذا اليوم لم يكن ينوى رش الشارع! .

لكن رد المعلم لم يكن يشفى غليل الناس بعد أن أصبحت الحكاية مضغة أفواههم، وكلما أنكر المعلم جزءاً من الرواية

الأصلية كانت تظهر له إشاعة جديدة كنتيجة لما يقال.

قال بعض الشباب أن (المعلم رمضان ، يصب المشاريب للزبائن من مياه مخلوطة بالكهرباء ، تتأين فى الجسم وتسبب السرطان، وحين كشف فرج الحقيقة ضربه المعلم وكاد أن يقتله).

ورد المعلم أن حنفية القهوة ملحقة من الخط العمومى وأنه لو صدق هذا الأمر، فالمنطقة كلها مؤكد بأنها تشرب مياه مشبعة بالكهرباء !، لكن الموضوع قد خرج عن السيطرة، معظم الشوارع المجاورة وصل لهم الأمر، لم يعد لفرج أى دور، ولم يعد إسمه يذكر أبداً، وقال الناس (المعلم رمضان صاحب القهوة، يسرق كهرباء الحكومة ليأين بها المياه، مما قد يسبب السرطان، وأن كل من يحاول كشف هذه الحقيقة ينل منه المعلم ويفتك به)، وقالوا أنه أراد بذلك ان تكون قهوته مكاناً مميزاً بعد ان كثرت المقاهى بالمنطقة لكنه مكر ومكر الله والله خير الماكرين!.

ودافع عن نفسه دفاع المستميت، وبعد شهور قال أنه لم يحاول قتل أحد، وأنه أصلاً لم يضرب فرج، ولا رأه ذلك اليوم، لكن كثيراً ممن يتحدثون فى الأمر لم يعرفوا فرج أصلاً! ولم يعنيهم إنكار الخناقة وإستمرت الأقاويل وقل الوافدون على المقهى، فى اليوم الواحد لم يكن يمر بها سوى إثنين أو أربع من أصدقاء المعلم القدامى أو غريب عن المنطقة لا يدرى أمر الحكاية، مع مرور السنة الأولى كانت خسائر القهوة فادحة للغاية، لم يتمكن من دفع إيجار الدكان، صاحب البيت، الذى كان من أنصار فرج فى

البداية، استغل الفرصة، وحاول طرده بعدته من الدكان، حاول رمضان إرضاءه ففشل، وأقدم بالفعل على مصالحة فرج، والاعتذار له عن حكاية تمت من شهور، لكن الناس لن تنسى، سيثرثرون وسيقال مع الوقت أن الدكان كله مسكون بالجان وأنهم وسوسوا لرمضان ليفعل ذلك، وأنه لو تاب المعلم ونسى فإن الناس لا ينسون، والله لم يفضحه أخيراً إلا بعد أن ستره كثيراً!.

وفى يوم وقف المعلم رمضان أمام جمع من سكان المنطقة كانوا يقصون عليه الحكاية كما سمعوها، سكت طويلاً.. نظر إليهم مستعطفاً كالموشك على البكاء وقال : أقسم بالله أنى ما كنت موجوداً يوم أن إنفجرت الكهرباء فى شقة أحمد حافظ ؟!.

ثم أدار وجهه عنهم وانصرف.

الشبيه

(١)

إنفرج الباب أمامه على مصراعيه فى قصر الرئاسة، سار بخطى تبدو كالواثقة، الكاميرات تحاصره والزحام شديد، الجميع يتكلم، وآلاف الأسئلة تنهال عليه، وألاف الردود فى رأسه لا يدرى من فرط الإرتباك أيهما يختار!

: ما شعورك الأن؟!.. ما أول قراراتك؟!..من سيشكل الحكومة الجديده؟.. وكيف سيكون الخطاب الأول؟.. الموقف من أحزاب المعارضة؟ واليسار؟... والتيارات الإسلامية؟... لجنة الدستور؟.. والبرلمان؟!... وهو مشتتاً يزيغ بعيناه بعيداً عن عيون الكاميرات، وجوه الناس بشوشة ومخيفة فى الآن ذاته، ثمة حالة رهيبة من القلق وإرتباك غير عادى منذ إعلان نتيجة الإنتخابات بالأمس نظر إلى وجه زوجته.. الوحيد الذى يألفه، ليستشعر الأمان، وسرت فى قلبه إنقباضة سرعان ماأخفاها بإبتسامة زائفة، تقدم من المنصة، نظر إلى الجموع الغفيرة من الصحفيين والأدباء والسياسيين، كل الوجوه اللامعة تنظره بحسد، إبتلع ريقه وتنهد،

(كتبت هذه القصة قبل الإنتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٢ بأيام... وأى تشابه فيها مع الواقع لا دخل للكاتب فيه)

إرتفعت أصداء الميكروفونات من حوله، كلماته كان لها صخب رنان يبعث على الحماس، لم يكن يدرى من أى مكان يأتيه سيل الكلمات، ولا من أى قاموس إستلهم هذه التعبيرات!.

■■■■■

(٢)

: هذه أخر دقيقة ستنعم فيها بالسلام فى حياتك.

قال منسق الحملة الإنتخابية وهو يزف إليه خبر نجاحه قبل إعلان نتيجة الإنتخابات بساعات.

بكى بغزارة وبكت زوجته، إحتضن أبناؤه بحفاوة، ساعة واحدة ومرق الخبر، دار العالم كله، كل وسائل الإعلام تتناقل صوره، سيرته الذاتية فى سطور، لقطات أرشيفية له، وكلمات مقتطعة من لقاءاته فى الأشهر الأخيرة، هو بطل اللحظه الأن، صفحات الإنترنت مزدحمة بصوره، الإذاعات، التلفزيون المحلى والقنوات الفضائية، جموع غفيرة من الناس فى مسيرات ضخمة بعضها نحو بيته والأخر نحو ميدان التحرير، الأعلام ترفرف، والجماهير فى الأسفل تصدح بإسمه، تصفيق لا مثيل له وهتافات تبارك بحفاوة أول رئيس بعد الثورة، وخلال يوم كامل لم تنتهى مكالمات التهنئة من رؤساء الدول والسفراء.

: من الغد ستبدأ الإجراءات الرسمية لتسليم السلطة

قال المتحدث الرسمى بإسم المجلس العسكرى ثم ألقى التحية العسكرية وإنصرف.

■■■■■

(٣)

: تدرى ماهو الأفضل لك؟... إصبغ شعرك قبل خطابك الأول فى البرلمان... يجب أن تكسب الشباب.. كل الشباب، يجب أن يشعروا أنك منهم، وأنك من قلب ثورتهم، لا يهمك من احزاب المعارضه هم لا شىء.

و إتخذ لنفسه حاشية من شباب الثورة، الوزارة الجديدة ستكون مفعمة بدم فتى نقى، وستغلق المعتقلات والسجون إلى الأبد، لا مزيد من كبت الحريات ولا وجود للرأى الواحد، آخر الفراعين قد ذهب وانتهى، السبيل الوحيد للديموقراطية هو أن نبنى وطناً تحترم فيه الحريات، وتمجد فيه الكرامة، نحتاج إلى مزيد من الجهود لذلك، توفير فرص عمل، إعادة هيكلة الرواتب، النهوض بالإقتصاد الوطنى وإنشاء سوق عمل يكفل تكافؤ الفرص، ولنكسب ثقة الشعب فلنعلن عن فتح كل الملفات القديمة للحزب الوطنى، والقصاص لدم الشهداء.

■■■■■

(٤)

فى هذا الصباح، وهو يمسك بمعجون الحلاقة وشفرة الموس أمام مرآة الحمام، لاحظ إنحناءة خفيفة بين حاجبيه واستدارة واضحة إمتدت بين الصدغين، هل هى أعراض الشيخوخه؟!،... ها هو يتوج أيامه زعيماً على البلاد التى أفنى عمره فى خدمتها!، وها هو يحقق حلمه الذى كان الأبعد منالاً.

وشاب خاطره إحساس غريب وهو منهمك فى الحلاقة وحادثته

نفسه وشعر بأن ملامحه قد تغيرت، وبرغم أنه يألف وجهه الذى عاش به أكثر من خمسين عاماً إلا أنه الأن بدأ يشعر بأن ثمة إنطباع ما يعطيه له هذا الوجه الأن، وجهاً لشخص أخر يعرفه عن قرب، ودار أمام المرآة ويداه تقبض على المعجون، ثم إستعاذ من الشيطان الرجيم، وغسل وجهه بالماء

ونظر إلى زوجته أمام الباب ثم ألقى عليها سؤاله بجدية

: هل كنت أشبه مبارك يوماً ما؟!

ورفعت حاجبيها مرددة

: مبارك من؟

ورد بغيظ

: مبارك ، مبارك الرئيس!

إبتسمت بقهقهة وهى تداعب ذقنه المحلوق و إنصرفت.

وخرج هو نحو الصالة سارحاً، وأمام مائدة الإفطار كان الأبناء يتابعون خطابه الأول الذى ألقاه بالأمس فى البرلمان، تسمر أمام التلفزيون مبهوتاً وظل ينظر إلى تعبيرات وجهه أثناء الكلام وكأنه يرى الخطاب لأول مرة.

وإنتزعته الأبنة الصغرى ذات العشرة أعوام فقالت بفرح : شكلك كان حلو يابابا وأنت فى البرلمان.

فإبتلع ريقه فى هذه اللحظه وأنكمشت نظراته ثم أخذ يتحسس صدغيه دون وعى ولم يرد! ، لاحظ الجميع أنه لم يتحدث طوال الوقت، كان شارد الفكر مشغول الوجدان ، ونهض فجأه عن المائدة دون أن ينبث.



(٥)

لقاءه الأول مع الأمير العربى كان مثمراً، تحدثا سوياً عن وضع البلاد بعد الثورة وعن إعادة هيكلة المؤسسات الحكومية، وعن تشجيع الإستثمار، فى البداية كانت الجلسة متوترة، الرئيس كان رسمياً بشكل مبالغ فيه لكن فى أقل من ساعة بدأ الحديث يتسع إلى حد المزاح، تحدثا عن العلاقات الخارجية للبلاد وعن الوضع السياسى فى المنطقة وعن شكل هذه العلاقة فى عهد الرئيس السابق.

وأمام الكاميرات كان يبدو اللقاء حميمياً، وقف الأثنان متعانقى الأيدى وقال الأمير بإمتنان : الحكومات العربية تحتاج إلى حكام شبان مشغولين بأوطانهم، لا شيوخ ينشغلون بصبغ رؤوسهم... وإبتسم الجميع، ولم يضحك الرئيس!، تأمل عيون الواقفين ثم إنكسرت عيناه نحو الأرض.

وشكر للأمير تفهمه لحاجة البلاد الراهنة وأشاد بقوة العلاقات بين البلدين، وأنهالت أسئلة الصحفيين، وأحس أنه كان سباقاً بالرد، فصيحاً فى أقواله، وعن بعد كانت الشاشات تعرض حديثه، وواتته فكرة الشبيه التى أفزعته بالأمس، وشعر بأنها حقيقة لا تحتمل الإنكار، وسرح للحظة ثم عاد للرد على أسئلة الصحفيين، وكان إنغماسه فى السرحان كثيراً مايزيد من توتره وتلعثمه فى الردود وهاتفته نفسه

: هل أصبحت أشبهه إلى هذا الحد؟

وقال أيضاً أن الشعب بأكمله مؤكد سيلحظ ذلك، وأنه لو مر

هذا اللقاء الصحفى بسلام فقد لا يمر مابعده وأن الناس ستقارن بالتأكيد، وأنه يوماً ما سيظهر صحفى أو رجل عادى أو صعلوك وينبه الناس إلى هذا التشابه الغريب!.. وربما لاحظت الناس بالفعل ذلك، ربما كان نصف الحاضرين هنا يتهامسون فيما بينهم بشأن هذه الملاحظة، وتفحص عيون من حوله لعله يجد الجواب فلم يظفر به!، وقال فى نفسه أنهم تربوا على الخوف وأنه لا أحد قادر على أن يفجر هذه الملاحظة الآن، ثم عاند نفسه مرة أخرى وتذكر كلمات الأمير العربى وهو يتحدث عن الذين ينشغلون بصبغ رؤوسهم، وإسترجع تفاصيل الأيام الماضية وكل الإجتماعات التى حضرها، والخطب التى ألقاها منذ توليه الرئاسة، وتضاربت الأفكار أكثر ولم يشعر بأن اللقاء قد إنتهى إلا وهو بعيداً داخل مكتبه!

كان يشعر بالوهن، ورفع سماعة التليفون وبلسان الإستعطاف قال: أريد ملف كامل عن الرئيس السابق، حياته الشخصية، حياته الأسرية، عاداته، أرشيف كامل لخطبه على مدار الثلاثون عاماً السابقة...

فى هذه اللحظة تحديداً وهو يتحدث فى الهاتف شعر بأن شيئاً ما قد إلتبس عليه، نهض عن مكانه كالملدوغ وهو يطوق حنجرته بيديه ، كرر طلبه أكثر من مرة

: أريد ملف كامل عن الرئيس السابق

وفى كل مرة كرر فيها جملته كان يشعر بأن نبراته أكثر غلظة، وأقل رنيناً.

(٦)

إستغرق الأمر شهراً كاملاً لتفنيد الملفات التى طلبها عن الرئيس السابق، كان يدقق السمع فى صوته، وطريقة حديثه ومن الصحف القديمة إستطاع أن يخمن ردود أفعاله تجاه العقبات التى واجهته...وقالت زوجته محذرة

: أنت تقتل نفسك، هذه كلها أوهام، إسترخى، لا تشغل بالك كثيراً

ورد ببرود

: ماذا لو كان أحداً أحس بما أحسست؟

: لا وجود لما تحسه

وعرض أمامها فيديو قديم للرئيس السابق وأخذ يشير بأصبعه من بعيد

: أنظرى، لو أغمضتى عينيك لشعرتى أنه أنا.

: يخلق من الشبه أربعين.

: إذن تعترفى بأنه يشبهنى

: أقصد بأنه لا يهم إن كان يشبهك أم لا...أنت شخص وهو شخص آخر، وتشابه الوجوه لا يعنى أبداً تطابق الأفعال.

: والأقدار؟

: والأقدار أيضاً.

لم يستطع أن يكذب كلماتها فسكت، ولم تسكت الهواجس عنه، وتأكد له بعد تفكير أن زوجته ساذجة.. لأن الأمر ليس مجرد تشابه فى نبرة الصوت وشكل الصدغين! ، وشاهد لمرات متتالية فيديو

أخر للرئيس السابق وهو يربت على كتف أحد العمال فى إفتتاح مصنع الغزل والنسيج بالمحلة، فتذكر أن المشهد ذاته قد حدث معه منذ أسبوع وهو يفتتح مصنع الأسمنت فى السويس، وواجه زوجته بذلك فلم تعجب وقالت بأن شخصاً أخر فى بلد أخر فى زمن أخر من الطبيعى جداً أن يتصرف بهذه الطريقة.

وتوالت أمامه مشاهد أكثر، فمثلاً فى حفل تكريم أوائل الثانوية العامة كان يضحك ضحكة مكتومة مثل مبارك، وفى خطابه الأخير لعيد العمال كانت لهجته عقيمة ممتلئة بالوعود مثل مبارك، وكلما فض الفكرة من رأسه كانت تأتيه بصورة أخرى، وفى كل يوم ينظر إلى مرآته يكتشف أن هناك جزء قد مات فيه وولد بديلاً عنه أخر!، إنحناءة الأذنين، وأرنبة الأنف، وغلظة الشفتين، وطريقة المشى، ووثق تماماً بأنه منذ اليوم الأول له كرئيس وهو يعيد ميلاد مبارك جديد فى داخله، وأنه يبدأ من حيث بدأ! ، وأن مواقفه التى كان يحس بأنها ثورية هى ذاتها مافعله مبارك يوم توليه الحكم منذ ثلاثين عاماً.

■ ■ ■ ■ ■

(٧)

: سنؤسس جهاز جديد ، سنسميه جهاز حماية مكتسبات الثورة، مهمته هى كشف العملاء وأعداء الثورة لمحاكمتهم.

ورد الصحفى

: والشرطة؟

: الشرطة مسئولة عن أمن البلاد ، أما إختصاصات الجهاز

الجديد فهى بمنأى عن إختصاصاتهم

: وجهاز الأمن الوطنى؟

: سيتم إلغاؤه

وصفق الجميع.

وخرج صحفى شاب من بين الصفوف وألقى بسؤال

: هل يعنى هذا حالة طوارىء جديدة كما كانت أيام مبارك؟!

وصمت الجميع، وقال الرئيس بعد صمت طويل لم يدر أحداً سببه

: بالطبع لا .... ثم سكت

■■■■■

(٨)

: سيدى الرئيس ، إلتزاماتك تحتم عليك أن تتواجد دوماً فى قصر الرئاسة.

: ولكنى قلت أنى لن أفارق بيتى القديم.

: مع إحترامى الشديد، لكن أعداء الثورة كثيرون وموقع البيت وسط العاصمة يصعب من تأمينه.

: أريد أن يشعر الناس أنى منهم .

: لكن أمنك جزء من أمن الوطن.

: والحل؟

: عودة الموكب، والإنتقال للعيش فى قصر الرئاسة.

وفكر قليلاً، ثم هز رأسه

: من الغد.

(٩)

: إذا إستمريت فى التفكير بهذه الطريقة فلن تنجز شىء، أعداء الثورة فى كل مكان، ناهيك عن منافسينك فى الإنتخابات الذين أضعت عليهم فرصة الفوز ، والمتحولون من النظام القديم، لن يسعك بسهولة السيطرة عليهم

: والحل؟

: تعديل وزارى سريع كى نضمن ولاء المسؤولين.

: فقط!

: والإعلام.

: إستدعى رؤساء تحرير الصحف ، وقياداتنا فى ماسبيرو.

■■■■■

(١٠)

: المظاهرات تملأ الشوارع.

: فلنرى مطالبهم؟

: أعتقد أن ورائهم من يحاول زعزعة الأمن ياسيدى الرئيس

وتراجع بظهره إلى الخلف قليلاً ثم خبط على المكتب بخفه وقال

: أعطى أوامرك لجهاز الحفاظ على مكتسبات الثوره بالتدخل.

كان التلفزيون يذيع لقاؤه الأخير مع مجلس الوزراء، كان ينظر إلى صورته وهو جالس فى حجرة الأجتماعات، وفى راحه نفسيه عجيبه تحسس معالم وجهه، وإبتسم !...كانت هواجسه القديمة بشأن مبارك قد إنبرت إلى غير رجعة منذ اليوم الأول الذى حطت فيه قدماه القصر هو وأسرته.

الأستاذ خليل

من عطفة صغيرة متفرعة من شارع البحر، كل صباح... بوجه عابس، متصلب يظهر الأستاذ خليل الموظف فى مصنع الحديد والصلب قاطعاً شارع بين الحارات، فى صمت يسير بنفس خطواته المتراكبة المعروفة وهو يستمع للبرنامج الإذاعى عبر راديو ترانزستور صغير لا يفارق يده... فى العادة يكون مرتدياً قميصه الأنيق المكوى بعناية وكرافتته التى غالباً ماتكون من نوع (أرجنس) الغالى، وبنطلون قطنى مخطط لا يتبدل صيفاً أو شتاءاً... يمر على كشك صغير عند الناصيه بالقرب من شارع كلوت بك، يلتقط جريدة (الأهرام)، يتأبطها أسفل ذراعه، يعبر الطريق نحو ميدان رمسيس وهو يتلفت جهة اليمين واليسار فى حذر ثم يقترب من

عربة الفول بجانب القهوة ويشترى خمسة أرغفة وخمسة أقراص من الطعمية الساخنة ثم يتوجه قاصداً المترو، هذا يعنى أن الساعة من المفترض أنها تدق الأن السابعة والنصف وأن إذاعة القرآن الكريم تبدأ فى برنامجها (فى ظلال الهدى النبوى)، يكون حينها الأستاذ خليل وسط الطوابير الممتدة أمام ماكينة التذاكر، ينتظر دوره على مهل... وفى مكان بعيد أخر عربة المترو جهة اليمين يفضل الجلوس بحيث يصبح مواجهاً لتيار الهواء، وقد يحدث ألا يحالفه الحظ فيبقى متصلباً فى الوقوف إذا ما كان مكانه المفضل مشغولاً وقد لا يتفائل كثيراً إثر ذلك، ووقوفه بهذا الشكل يعنى أن هناك شيئاً ما غير طبيعي فى اليوم، لأنه بفرض إستمرار وقوفه لمحطتين متتاليتين مثلاً فهذا يعنى أنه لن يتمكن من إنهاء سندوتشات الطعمية وصفحة أخبار الرياضة قبل محطة (الملك الصالح) !،حيث يمتلىء القطار عن آخره بطلبة المدارس الذى يأنف رائحتهم العطنه فى الصباح! ، سيتطلب ذلك منه المزيد من ضغط الوقت على حساب الروتين اليومى ، ومؤكد بأن الجوع سيقرصه قبل التاسعة ومؤكد أيضاً بأنه سيصاب بحالة من التشتت الذهنى أثناء العمل إثر ذلك وسيحتاج لأن ينزوى لنصف ساعة على الأقل بعيداً عن زملاء المكتب ليتم إفطاراً هادئاً!.

ولو فرض بأنه أتم روتينه بدقة بالغة، فهذا يعنى أنه فى محطة

(الملك الصالح) تحديداً ستدق الساعة السابعة وأربعون دقيقة، وأن الراديو سيبث قراءة قرآنية قصيرة بصوت الشيخ الشعشاعى وأنه يتبقى للإستاذ خليل حوالى عشرون دقيقة للوصول إلى محطة حلوان حيث المصنع الذى يعمل به.

هذا الروتين اليومى إعتاده الرجل منذ ثلاثين عاماً حتى أصبح مبرمجاً بفطرية غاية فى السلاسة على ذلك، يتصرف وكأنه ألة يحتم عليها أن تفعل نفس الشىء كل يوم، وترى نفس الأحداث، نفس المحلات، نفس الشوارع، فى نفس المواعيد، حتى نفس الناس الذى يلقى عليهم السلام فى الذهاب والعودة، وعسكرى المرور عند ناصية جامع الفتح، وصبى المقهى، و خبازين فرن العيش فى الصباح وأصحاب محلات الحلويات وورش السمكرة جميعهم جزء من حياة الأستاذ خليل لذا فأى تغير طفيف من السهل ملاحظته، غياب شخصاً ما، أو حدوث تجديد صورى فى حركة المشاه أو تغيرات قد تطرأ على أياً من محطات المترو من لون الأرضيات والسلالم الكهربائية ولوحات الإرشاد ! ،

والغريب أنه لم يشعر أبداً بالملل، والأغرب أن طابعه الخاص يعجبه بشدة، فهو الذى حشر نفسه عن عمد فى ذلك القالب المنضبط منذ سنين، وقد يرى البعض أن حفاظه على ذلك المضمار فى إسلوب الحياة قد يضفى عليها نوعاً من البساطة والهدوء، لكن

مشكلة الأستاذ خليل هو أنه لا يعيش بمفرده، ليس وحده من يركب المترو أو يسير فى شارع رمسيس أو يسكن فى شارع البحر ولهذا فهو بكل ماأوتى من قوه لن يستطع أن يقاوم كل من حوله بتصرفاته السخيفة التى تضيق حياتهم ، فهو دقيق جداً فى تطبيق القوانين، وحازماً فى إتباع الأرشادات والقواعد ولهذا كان يغضب بشدة عندما ينظر لأشارة المرور الحمراء فيجد (كرته) حقيرة يجرها جحش صغير تعبر الشارع بينما العربجى يهرش طاقيته فى لا مبالاة، وينفعل حين يصمم أحدهم على أن يتعدى مكانه فى الطابور أمام ماكينة التذاكر، ناهيك عن بائعى الأرصفة والشحاذين وضجيج المارة وكلاكسات السيارات دون مبرر!، وكم من عراك إشتعل بينه وبين الركاب إن رأى أحدهم صاعداً من باب النزول أو لمجرد محاولة أحد طلبة المدارس العبث بذر الإنذار قرب الباب، فتهيج العربة عن أخرها بصياحه وقد يتجاهله البعض ممن تعودوا وجوده، فمعاركه معروفة وتتكرر كل يوم للأسباب ذاتها، وهكذا أصبح الرجل مشهوراً.

وفى العمل كان يعتبر نموذجاً مثالياً للموظف المتفانى، ويرجع البعض طبيعته الصارمة فى الحياة إلى عمله كموظف منذ أوائل السبعينات، سنين طوال تشبع فيها بخلاصة البيروقراطية فى مصر ورغم عمله الذى يبدو أرشيفياً للذين لا يعرفون عنه الكثير،

إلا أن الموظفين القدامى والعمال من صغيرهم لكبيرهم يعرفون جيداً أن للأستاذ خليل يداً فى التقارير الشهرية التى تتابع سير العمل، والموافقة على الأجازات الإعتيادية، ورفض الأجازات العارضة بأى شكل من الأشكال، ويفخر هو شخصياً بذلك، ويشعر دوماً بالعظمة حين يتهمه أحداً بإختلاق العقبات البيروقراطية، أو تذليل أحداها بحبكه قانونية يخترعها لأسبابه الخاصة، أما الذين يلعنهم الأستاذ خليل فتتحول حياتهم لجحيم لا نهاية له. والجميع يذكر حكاية شكرى البياص حين إعتدى عليه بالضرب والشتائم بالمكتب لما فوجىء بأن مرتبه الشهرى خمسون قرشاً من إجمالى ثلاثمائة جنيه، حينها تفاقمت المسألة، وإنقض البياص على رقبة الأستاذ خليل من فوق المكتب ثم سحبه من ياقة القميص إلى الخارج بينما صراخه يتعالى وهو مصمم على أن البياص لا يستحق أكثر من ذلك.. لأنه إستنفذ رصيد أذونات التأخير عن الشهر الماضى!، وحين هدد البياص بأنه قد يمتنع عن إستلام المرتب، إستمر الأستاذ خليل فى عناده وأعلن عن تشكيل لجنة من الشئون القانونية لبحث الأمر، إستمر عملها لأكثر من ثلاثة أسابيع وكانت النتيجة ثلاثون قرشاً من نصيب البياص بدلاً من خمسين، مما زاد من غضب الرجل يومها وجعل المشكلة تتفاقم إلى الحد الذى وصل لإصابة الأستاذ خليل بجرح غائر فى الرأس إثر إرتطامه بحافة الباب!.

كان مصير البياص بعدها الإيقاف عن العمل نهائياً، وأصبح البياص مثلاً يستشهد به بين العمال كلما تعلق الأمر بالأستاذ خليل، هذا بالطبع صنع فجوة عملاقة بينه وبين الآخرين ،وكل الذين لجأوا لحيلة السجائر الفاخره أو عزومة الإفطار أو الإشادة بعظمة نادى الزمالك أمامه بحماسه لم تشفع لهم تصرفاتهم أبداً.

ولأن الأستاذ خليل كان مؤمناً بمثاليته التى تضعه على طريق الصواب فقد أصبح أعداء القانون أعداؤه، وأصحاب الحيل القانونيه هم أول من يجب الإطاحة بهم، ولهذا كان يشعر فى قرارة نفسه بحب الإنزواء، وكان يسأل نفسه لما لا تكون الحياة كلها لون واحد، أبيض فقط أو أسود فقط، ولماذا يصنع الناس قانوناً ثم يبحثون عن ثغراته! ، ولماذا يكتب أحدهم يافطة إرشاد كى يحاول أخر إنتهاكها؟، وحين لا يجد الجواب، كان أحياناً يضعف، ويفكر فى أن يغير منهجه الصارم ويعيش مثل الناس على طبيعتهم ، لكنه كان يكتشف أن صرامته فى الحياة هى جزء من طبيعته وأن القيود التى وضعها على نفسه قد أصبحت شكل من أشكال حريته وتخيل حينها أن الحياة بأكملها إن كانت بلا قوانين فربما كان هو أول من سن لنفسه قانوناً خاصاً ليسير على خطاه، كل يوم ينتبه أن هناك أشياء كثيرة يتعمد الناس مخالفتها بشكل مبالغ فيه، وأن سائقى الميكروباص مثلاً أصبحوا يشغلون جزءاً من الشارع لا يحق لهم،

وأن وزن رغيف العيش أصبح أخف ، وأن رائحة زيت الطعمية غريبة، وأن السيارات تسير على أهواءها حتى والإشارة حمراء، وأن الباعة الجائلين أصبحوا يفترشون رصيف جامع الفتح بأكمله وأنه لا مكان للعبور من هذا الطريق كما إعتاد!. وقال فى نفسه (ولماذا أشغل نفسى بالناس؟) ، لكنه تذكر بأنه منهم وأن القانون نفسه وسيلة لتنظيم العلاقات بينهم، وأنه بدون المجتمع لما وجد القانون.

فى يوم وهو خارج من شارع البحر سرح، إنشغل لدقيقة وهو يتابع السائرين وسط الميدان، رأى أن الطريق المعتاد إليه للمترو قد سد تماماً بالباعة والناس!، فجأه دقت الساعة السابعة والنصف وأكتشف أنه لم يصل للمحطة بعد!!. وهرول من طريق أخر عبر الميدان، لكنه لم يعرف بوابة أخرى لدخول المترو، وأكتشف أيضاً أن كل الطرق التى كان يعرفها من ميدان رمسيس قد تغيرت منافذها على مر السنين، ووقف على أعتاب الرصيف، دار بعيناه لأول مرة على المقاهى والمحلات والمشاة والمتسولين والباعة وضحك ضحكة ساخرة خائرة حينما إنتبه بأنه بإتباعه القانون كان يتحدى كل هؤلاء، وأنه بذلك قد صنع عداوه مع من يعرف ومن لا يعرف!، وأنه قد ولى نفسه رقيباً على أفعالهم ،وفى زخم تفكيره إنتبه بأنه يستمع إلى صوت الشيخ الشعشاعى الأن!، وأنه لازال واقفاً فى ميدان رمسيس بينما من المفترض أن يكون قد أنهى إفطاره قبل

محطة (الملك الصالح) !!، لم يحتمل الرجل المكوث أكثر، دار دورة كاملة للبحث عن مدخل أخر، أخذ طريق كلوت بك لأخره ثم عاد وهو يسأل الماره بلهوجه..دار حول جامع الفتح وشعر بأنه فى كل دوره له كان ينتهك لافتة جديدة أو إشارة مرور أو يخبط أحد عن طريق الخطأ، وأفزعته فكرة أن رجلاً بمثاليته من الممكن أن يرتكب جريمة مثل هذه!، وأفزعه أيضاً أنه حتى بإنتهاكه هذه القوانين فهو لم يحقق مراده، ولن يستطع تعويض الربع ساعة الضائعة.

قراءة الشيخ الشعشاعى أوشكت على الإنتهاء وهناك على إمتداد البصر إكتشف بأنه قد دار دورة كامله حول نفسه وأنه قد عاد إدراجه إلى نفس المكان الذى هرب منه أمام جامع الفتح....وكان منظر عقارب الساعة فوق المحطة يرعبه، وعندها نظر بغيظ إلى الباعه المنتشرين على جانبى الرصيف أمام الجامع، ربط بأن هؤلاء التافهين أعداء القانون هم السبب الرئيسى فى تدمير يومه!، وإمتلأ بالسخط و سار تجاههم خطوات، كان ينوى النصيحة بالحسنى أو إفتعال عراك، لكنه ودون وعى بالطبع ،ورغم فرط التعب الذى يحسه الأن، شعر بقدماه تسرع بخطاها أكثر من المعتاد...عقارب الساعة كانت تشير إلى الثامنة، تخيل فى ذاكرته تعليقات موظفى الشركة، وشماتة العمال، وفكر كيف سيرفع عيناه مرة أخرى أمام الخارجين عن القانون؟!، كيف سيجيز لنفسه رفض

إذن تأخير أو طلب أجازه؟!..الأفكار تتداخل، وخطى قدماه تتسارع، وأمام الباعة لم يتوقف، وكان من الغريب أن يفعل ذلك، ظل يسرع أكثر وكأن شخصاً أخر يسير بقدماه !، أشياءاً كان يهرسها أسفل حذاؤه، وأشياء أخرى كانت تتحطم بعنف، علب سجائر، لعب أطفال، أحذية، نظارات، بطاريات، ولاعات، كانت شتائم الباعة تلاحقه وثمة حالة من اللاوعى تنتابه وهو متمادى فى التحطيم كطفل صغير تستهويه أعمال صبيانيه! ، هارباً أو متعجلاً ظفر ببوابة المترو الوحيدة التى يعرفها، و حشر نفسه بين الداخلين، كان الزحام أشدمما عهده فى هذا التوقيت !، ومع ذلك أصر،جدف بكوعيه بين الناس، وألقى بثقل جسده داخل الصفوف حتى وصل إلى طابور شباك التذاكر، كان من المفترض حينها أن يلقى بسلامه على بائعى الكتب وعسكرى الأمن، لكنه،بخجل، شعر بحاجته للتوارى عن أعين من يعرفونه، خافهم، وهاب مجرد نظرة غريبة قد يلتمسها من أحدهم، كان لديه فى هذه اللحظة آلاف التعليقات عن أشخاص تعدوا أماكنهم فى الصف عن قصد، وأخرون يصعدون المترو من باب النزول وأخرون يغافلون عسكرى الأمن دون أن يقطعوا تذكرة، وكانت الخواطر تأتيه وهو متمادى فى التخفى كأنه قد إرتكب جرماً وشعر أثناء إنهماكه فى ذلك أن هناك غاية ما تلح عليه، فى هذه اللحظه بالتحديد، فعل صبيانى أخر لم يستطع كبح

جماحه!، كان الطابور طويل بحق ، يتلوى أمامه كثعبان ضخم على مرمى البصر، وبينما ساعة المحطة تشير إلى الثامنة والربع كان الأستاذ خليل قد آمن بأنه لا مناص من التأخير عن العمل ،

ولأول مرة - فى هذا اليوم ،ولأول مرة فى حياته على وجه العموم،يخرج عن الصف!!، ويستسلم لغايته الدفينة.. قفز فوق ماكينة التذاكر دون قطع تذكرة !.

في إنتظار يوسف

خريف الثاني من أيلول ١٩٥٠
(دقت الطبول إحتفالاً بمولدها)

هى الأبنة الأولى لهما.. وأهل الحارة جميعهم يذكرون ذلك اليوم حين تجمع كبار العائلات بديوان المنطقة يهنئون أباها بمولدها، كانت الزغاريد تنطلق من بيتهم ترد على أصداء مدافع وصواريخ اليهود فى قطاع غزة، بينما البلدة بأكملها متكدسة بآلاف اللاجئين الفارين من ديارهم، يتناثرون بين الأزقة والحارات كيوم الحشر، الناس جميعاً يعرفون أن الساعة ليست محل إحتفال، وأن مولد طفله وسط موت الآلاف لا يستحق كل هذه الفرحة إلا أن أباها لم يكن يعنيه فى العالم بأكمله سوى حضنها والنظر فى عينيها الخضراوتين إلى الأبد!.

■■■■■

الثالث عشر من شباط ١٩٥٤

(إفتحى ياوردة...إقفلى ياوردة..)

كانت تغنيها مع أطفال الجيران وهم متراصون فى دائرة تتمدد وتنكمش على إيقاع الأغنية.. تتشابك بيدها اليمنى مع أصابع صديقتها (مريم) ومن الجهة الأخرى مع إحدى الأطفال من معسكر اللاجئين التى لم تكن تعرف عنها سوى إسمها بالطبع، وماتعرفه فى الحياة لم يتعدى حدود تلك الحارة الضيقة التى لا تساوى شيئاً مقارنة بشوارع خان يونس وميادينها. وحتى ماعلمه لها أبوها من حروف وأعداد لم يكن ليتعدى أصابع اليدين، وكثيراً ماكانت تجلس إلى مريم ليتسامرا قبل الغروب قرب خميلة الياسمين عند حدود المعسكر يجتمعا سوياً فى حلم وردى واحد ومستقبل ممسوخ المعالم.. مريم تود أن تصبح طبيبة، تداوى آلام المرضى وتطيب خواطرهم، وقد قالت لها يوماً (إنى أعشق رؤية البسمة على وجوه الناس) ثم إلتفتت إليها وسألتها عن حلمها فقالت (لا أعرف!..ربما أود أن أصبح معلمة فى المدرسة الأبتدائية).

■■■■■

فجر الثلاثون من أيار ١٩٥٥

(كان السكون يحوم حول المكان)

تنام وعلى وجهها هدوء الملائكة، تعودت أن تنكمش فى سريرها قرب الحائط، الأن تفتح عينيها فجأه على صراخ أمها وصيحات

أهالى الحارة الذى يسمع بالكاد بين صوت غارات اليهود المتلاحقة وضربات النيران، ينتشلها أباها من بين احضان وسادتها ويجرى بها مسرعاً ليحتمى مع باقى الأهالى فى إحدى الممرات، يحملها فوق كتفيه ولم تزل في عينيها أثار النوم.. تفتح جفنيها على مصراعيه، ترى من بعيد شبح مريم يجرى فى الظلام.. مريم تهرول خلفهم وتنادى بأعلى صوتها..تمد يديها نحوهما وهى تستجمع كل عزيمتها فى الفرار... أباها طوق النجاة الذى سيحملهم معاً..تمد يدها هى الأخرى وهى تصرخ فى أذن أبيها (مريم ياأبى)..ولم يكن الأب مشغولاً بكلامها قدر إنشغاله بالهرب، حب الحياة يلدغ وجدانه فيصم أذانه عن صوتها، هى تستمر فى نداداتها، تمدد أطراف أصابعها نحوها (مريم!..مريم!).. سقطت مريم إثر رصاصة إخترقت رأسها.. كانا قد إقتربا من الممر خطوات، وصرعى المدافع والرشاشات يتساقطون أمامهم على جانبى الطريق، تصورت أنها بإغلاق عينيها ستعالج الأمر!، لم تكن تعرف أن الفلسطينيين يحلمون بعيون مفتوحة !، منذ ذلك اليوم وهى تتمنى أن تصبح طبيبة لتعيد إلى مريم الحياة.

■■■■■

ليلة الثانى من أيلول ١٩٥٥
(عيد ميلادها الخامس)

كانت شمعة وحيدة هى المضاءة.. لم يكن بوسع أبيها أن يفعل مثلما فعل فى مولدها الأول فيجمع الجيران ويدق الطبول.. ظلت

ليلتها متأملة فى سقف غرفتها تتخيل صورة مريم وهى ملقاة على الطريق فى بركة دماء .. تخاف أن تغمض عينيها فتنهض مذعورة كأول مرة، شعرت أن راحة النوم لا تكتمل إلا بصرعة الرصاص.. ظلت محدقة فى شمعتها قبل الأفول حتى لا يغلبها النوم تراقب خيط الدخان يعلو من طرف الشعلة حتى إنطفأ ،صوت الغارة أصبح معتاداً هذه الأيام يزورهم فى الليل والنهار.. تنصتت لصوت أبيها وظلت قابعة مكانها لعله يأتى إليها كالعادة.. لكن صوت الدبابات المجنزرة كان قد إخترق شارع البحر وطلقاتها هدمت حائط البيت المطل على الحارة فأحدثت هزة جعلتها تجرى متعثرة بين الحطام، تجر جسدها كأنها تحمله فوق كتفيها - نادت أبيها وتخيلت بأنه قد أن أوانها فى أن تلحق بمريم، ظلت سائرة على جانب الطريق.. فضلت الهرولة نحو معسكر اللاجئين.. لمحت أباها اتياً من جهة شارع القلعة، ينادي، يلوح لها بكلتا يديه، يأمرها أن تنتظر مكانها بلا حراك، راقبت فوهة الدبابة لعلها تطمئن ببعدها عنه ثم نادته قائلة (أسرع) فجرى نحوها.. وحينها رأت بعينيها جندياً مدججاً بالسلاح يخرج من بين سحب الدخان وينطلق بالبندقية نحوه فى إصرار... ومع ضربات المدافع وطلقات النيران غشى الغبار رؤيتها للحظات وحين فركت عيناها وفتحتها مرة أخرى نظرت يميناً ويساراً فلم تجد له أثراً، منذ ذلك اليوم وهى مقتنعة أنها بندائها قتلت أباها!.

■■■■■

الرابع من أيلول ١٩٥٥
(صوت المقرىء فى بيتهم يتلو سوراً من القرأن)

كانت أمها مطبقة عليها بيديها وهى تنظر إلى إحدى الصناديق المغطاة.. كانت ترى من الصناديق الكثير... حاولت عدهم لكنها تذكرت بأن أباها لم يكمل لها حفظ باقى الأعداد، إنطلقت جحافل الناس حاملة الصناديق وكلهم فى صيحة واحدة ينادون بدم الشهداء، نظرت إلى وجه أمها وعيناها متغرغرة بالدموع فقالت (أي الصناديق فيها أبى؟) ، فأجابتها قائله (كلهم كأباك).

■■■■■

التاسع من شباط ١٩٦٠
(الضحكات تهدر بين أركان الحارة)

كانت تلعب الأستغماية بين زميلاتها..أصبحت فى العاشرة.. لم ينضج عقلها بعد.. لم تكن تود أن ينتهى لعبها.. البراءة فى عينيها تداعب أحلام الصبا، الطفل يكبر حين لا تخيفه صوت الغارات! ، إنطلقت صيحات الأهالى بعد صوت إنفجار مدوى... جرت هى الأخرى لترتمى فى حضن أمها، تعثرت فى جريها وأنكفت على وجهها أرضاً فتثنت قدماها أسفلها وسمعت بأذنيها فرقعة عالية فى عظام الساق، شعرت بألم فظيع وظلت تصرخ ولكن دون جدوى.

■■■■■

السادس والعشرون من أيلول ١٩٦٢
(صوت أمها يهمس فى أذنها بقصة قبل النوم)

هى تتمدد فى فراشها لا تنتبه كثيراً لحديث الأم، تنظر إلى عكازها الجديد فى غيظ، لا تقتنع بأن تلك العصا الحديدية من الممكن أن تعوضها عن ساقها المشروخة!..إن أمها قد قالت فى البداية بأن الأمر لن يتعدى مجرد أيام.. إلا أن الفترة قد طالت عن الحد لم تعد تطيق نظرات زميلاتها فى المدرسة التى تذكرها بالعجز وتمقت كل تلك الكلمات العطوفة الممتلئة بالشفقة.

إلتفتت إلى أمها وهى تحكى حكايتها عن المصباح السحرى والأرض البعيدة التى تمتلىء بالجنان والسكينة، لكنها كبيرة الآن بالقدر الكافى لتؤمن بأنه ليس هناك فى العالم أجمع مثل تلك الأماكن، وحين شعرت بالملل نظرت إلى وجه أمها فى هدوء ثم قالت (إن وجدت المصباح السحرى سأتمنى أن يعود ابى ومريم..أو تنتهى الحرب) ثم رانت بنظرها نحو عكازها وقالت بصوت يملؤه الوهن (وتعود ساقى).

■■■■■

السادس من حيزران ١٩٦٧
(صوت المذياع يبث أغنية حماسية تشيد بأمجاد المصريين)

كان جميع من فى خان يونس يشيدون بعظمة المصرين وجمال عبد الناصر، أما هى فكانت تتابع أخباره عبر المذياع، قرأت عن الثورة، وتابعت إنجازاتها أولاً بأول ، ولديها ذكريات طفيفة عن أيام

تأميم القناة منذ أن كانت طفلة صغيرة لا تتعدى بضعة أعوام!.

كانت ترفع عكازها عالياً فرحة بالأغنية، إنها تحب الأغانى الحماسية، تحب عبد الناصر، تشعر بأن تلك الجنة التى حكت عنها أمها قديما هى مصر!..كانت سعيدة إلى أقصى درجة!..وحين عرجت فى شارع القلعة نحو دكان أبى منصور النجار.. قابلت يوسف فألقى عليها السلام وأبتسمت فى وجهه فخاطبها بحماسه يحكى لها عما فعله هو وزملائه من عائلة البريم مع أحد جنود الصهاينة بالقرب من السوق. فسرت لسروره وشعرت بالفخر يعتملها مثله.. إنها تراه بطلاً.. يوسف يدافع عنها قبل أن يدافع لأجل بلادها.. يحميها ويأخذ لها بثأر أبيها، وطالما تراه بجانبها فستظل السكينة فى قلبها .

أصر ذلك اليوم أن يصطحبها نحو دكان ابيه وفى الطريق ظل صامتاً لفترة جعلها تنفر من سكوته ولم تكد تنطق أمامه حتى قاطعها قائلاً (إنى أحبك)... كادت تجيب حتى إنتبهت لصوت الناس يصرخون قائلين (اليهود هاجموا مصر وعبروا القنال).. فأنهمرت الدموع بغته وهى تضرب الأرض بعكازيها (الجنة لم تعد موجودة يايوسف).

■■■■■

الثانى من أيلول ١٩٧٠
(عيد ميلادها العشرون)

كانت تتمنى أن يحضر يوسف هذا اليوم ليراها وهى فى أوج أنوثتها، لكنه إختفى منذ أشهر ولم يعد أحداً يعرف عن مكانه

شىء، وقد سمعت من بعض الناس فى قرية بنى سهيل المجاورة أنه ذهب مع بعضاً من شباب عشيرتهم فى عملية إستشهادية بالقرب من رفح لكن أحداً منهم لم يعد حتى الأن!.

كانت كثيراً ما تسمع عنهم، لكنها كانت تلومه فى ذاتها لأنه إنصرف فجأة دون أن يعلمها، لقد أضحى بينهما حباً لن تستطع الحروب أن تقاومه، ورغم أنهما قد أصبحا بعيدين الأن إلا أنها ظلت على عهدها معه بأن وفاءها إليه سيظل خالصاً حتى يعود ولو غزا الشيب شعرها وأكلت التجاعيد من وجهها أكلاً!..إنها تنتظر يوسف.. تؤمن بداخلها بأنه يوماً ما سيأتى إليها!.

■■■■■

السادس من تشرين ١٩٧٣

(كانت الطبول تدق بين الأزقة والحارات)

إنطلقت من الفرح تتكىء على قدمها نحو الباب..ظنت بأن الأبطال قد عادوا ومن بينهم يوسف ،عدلت من خصلات شعرها أمام المرآة فى عجلة من أمرها وفركت خديها لتبدو أمامه ورديتان ممتلئة بالحيوية، وحين تقدمت من باب البيت سألت إحدى النساء فأجابتها (المصريون فى الطريق لإنقاذنا)... فردت والفرحة تقفز من قلبها (إن من بينهم يوسف ياخاله..سيعود هذه المرة).. ومرت ليال بطولها والأهالى فى إنتظار النصر، كانت الأنتصارات تتكرر على مسامعهم وصوت الطائرات النفاثة يشق سكون الليل وغدير

النهار بين السحاب، إنهم متأهبون هذه المرة، و المذياع لا يكف ليل نهار عن نشر خسائر اليهود وأعداد أسراهم فى الحرب، كانت الحماسة تملأ قلوب أهل الخان، وإن رجال الحى ونساءهم وأطفالهم لينتظرون شوقاً إلى قدوم قوات الخلاص !..المصريون أخذو سيناء.. المصريون عبروا القنال.. المصريون هدموا خط بارليف... لكن لا المصريون وصلوا إليهم ولا حتى عاد يوسف!.. كانت لا تثق فيما يتردد على مسامعها بأن مصر قد تنازلت عن حمايتها لفلسطين وأن المصريين أكتفوا برفع راية بلادهم على خط القنال، لكن الأيام أثبتت لها صحة أقوالهم..ورغم أن نصر المصريين لم يكن رادعاً لليهود حتى يكفوا عن إضطهاداتهم ومذابحهم، إلا أن الحرب كانت دافعاً لأهل الخان بأكملهم على الشماتة من أعدائهم، إن نصرالمصريين هو نصر لكل المضطهدين بين أنياب الأستعمار، أما هى فكانت قد بدأت فى الأيمان بأن يوسف قد أستشهد فى الحرب، لقد مات لأجل القضية أو لكأنه مات لأجلها هى!..ولهذا كان يستحق منها أن تظل على ولاءها له طول العمر، فأرتدت منذ ذلك اليوم ثياب السواد وحرمت على نفسها متاع الزينة وظلت أيامها تعيش على ذكراه.

■■■■■

العشرون من تشرين الثانى ١٩٧٧
(العالم كله يترقب خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلى)

كانت ترتدى ثياب السواد وهى جالسة عند ناصية شارع القلعة من جهة معسكر اللاجئين، إنها تكذب عينيها فيما رأت، لا تصدق بأنها لمحت بعينيها يد السادات وهى تقبض على كف مناحم بيجن تعبيراً عن السلام، قالوا حينها بأن الحرب ستنتهى وهى كانت ساذجة لدرجة أنها إقتنعت بأن جنود الصهاينة سينسحبون رويداً رويدا من مصر ثم رفح ودير ياسين ثم غزة حتى يرتدوا على أعقابهم مشتتين فى العالم وخاطبت نفسها فى إنبهار بما فعله المصرين بعد النصر وكيف أنهم أجبروا اليهود على الأنسحاب، لقد علمت الأن لماذا لم يأت الجنود المصريون لنجدة أهل الخان، لقد كانت خطتهم أعمق بكثير مما تصورت، إلتفتت إلى شيخ عجوز كان يجلس بالقرب من صالة بنو النجار كان يبدو من لهجته بأنه من أهل البادية، فسمعته يقول (فليذكرهم أحداً بأن بيجن وجنوده قتلوا ولداى فى دير ياسين)، فأقتربت منه (إنس الماضى ياحاج..إنهم ذاهبون الأن..وليرحم الله شهدائنا)...فأشاح ببصره عنها ولم يرد، أما هى فعرجت نحو أبواب البيوت تنادى بعلو الصوت (الصهاينة ذاهبون ياأهل الخان...الصهاينة ذاهبون) ، طرقت أبواب الحارة جميعها وظلت ترقص بين الناس بعكازها فى حين وقف الجميع حولها وعلى وجوههم غيامة من الحزن والوجوم، صوت الرئيس السادات يتلاحم مع صوتها ليصنع نسيجاً باهت الألوان، ولم يسمع الأهالى شيئاً عن فلسطين إلا عبارة مباشرة

المعنى خفية المضمون (الانسحاب من سيناء التي احتلتها إسرائيل في عدوان العام ١٩٦٧م)... فبكى الجميع أمام الأبواب أما هى فقد ظلت ترقص وتدور بعكازها حتى سقطت أرضاً فأنطلقت فى نحيبها وهى تشق الجيوب وتتقلب فى التراب من أثر الصدمة وهى تصرخ قائلة (لقد أهدروا دمك يايوسف..أهدروا دمك ياحبيبى).

■ ■ ■ ■ ■

الواحد والعشرون من تشرين الثانى ١٩٧٧
(إنقطعت عن العالم ولم يعد هناك صوتاً يسترعى إنتباهها)

إنها تشعر بأن الموت قد سبق أوانه إليها بالرغم من أن أنفاسها لازالت فيها !..ولا تذكر منذ ذلك اليوم حتى الأن بأن هناك جديد...فالمذابح لازالت على تعدادها، وكل يوم ترى فيه أقدام اليهود تدوس لديها شيئاً مقدساً ، إنها لازالت بكراً عذراء فى إنتظار حبيبها لكن اليهود لم يتركوا لها أملاً فى إنتظاره ، ظلت تسمع بأمر المذابح فى البلاد منذ ذلك اليوم ، وتقول فى نفسها بخيبة أمل (لو نجا يوسف من مذبحة صيدا فكيف بشاتيلا وإن هرب من عين الحلوة فكيف واجه سحمر والحرم الإبراهيمى؟) .

لقد إعتادت على حياتها هكذا..نست الأمان ..وتناست الجنة على الأرض لأنها أمنت منذ ذلك الحين بأن الملائكة لا تسكن بين البشر.. إنها لا تدرى لأى شىء تعيش ولا لأجل من!.

■ ■ ■ ■ ■

التاسع والعشرون من أب عام ٢٠٠٨
(صوت أطفال الحاره يلعبون الأستغمايه يتداخل مع صوت ضربات النيران والمذياع)

كانت ترى بعينيها كل يوم رجلاً يرتدى حلة سوداء فوق قميصاً ذو ياقه ناصعة البياض ليتحدث عن السلام والمفاوضات..ظلت تستمع إلى تعليقاته على مذبحة غزه ..لكنها وبعد كل هذه السنون كانت قد فقدت الأمل..أصبحت واثقه بأن الهويه الفلسطينيه لن يعد لها مكان بعد سنين ..ظلت تتوسد مقعدها أمام المذياع لا تستطع النهوض عن مكانها لتنل شربة ماء..تنادى صغار الحاره أن يكفوا عن اللعب ويأتوا لمساعدتها لكن أحداً منهم لم يسمع تأوهاتها وأستغاثاتها من بين صوت المدافع والنيران ، تعيش واقعاً غير ذلك الوهم الذى تتحدث عنه المفاوضات والأذاعات ، ظلت أذناها ترفض ماتسمعه..إنهم لن يرفأوا ساقها أو يعيدوا يوسف أو يحيوا أباها.. فتحاملت على نفسها وأمتدت يداها ترتعشان وألتقطت جهاز التلفاز تهشمه ثم ألقت به عبر النافذه وهى تصرخ (يكفى هذا..أرجوكم يكفى) ...ثم وقفت فى النافذة والناس يلتفتون إليها فى عطف فصاحت قائله (إستدعوا يوسف لأجلى).

الرقص على وتر رفيع

أطبيب انت؟... أجبنى!

لا أرى على وجهك معالم الأطباء الهادئة الصافية!..ولا أرى فى يديك أياً من أدوات التشريح ومشارط الأطباء!.ولا تلك السماعة التى تتدلى كالطوق من رقابهم!.

قد تكون أنت طريقى نحو الشفاء أو لاتكون!.. فحالى لا أرى له داعياً من تلك الأدوات والكماليات!..إننى فقط فى حاجة لأتكلم إلي شخص ليس أكثر!.

أعمل قاضياً وعمرى خمسين عام، لدى من الأبناء ثلاثة.. أكبرهم يدرس القانون بكلية الحقوق.. ولا أرى داعياً لأن أدمج إسمى فوق كل هذا..فأنا هو أنا.. وحتى إسمى لا أجد له معناً بين كل مسلمات الأمور.. أو لتقل بأنى أحياناً أتساءل وأقول : لماذا اسمى؟!.

مجنون أنا.. أليس كذلك؟!.. أظنك قد إعتدت على مثل ذلك النوع من مرضاك.. أراك تجلس مستكيناً هادئاً على كرسيك الأنيق تستمتع برؤيتى مستسلماً على أريكتك، وكأن مظهرى لا يثير فضولك.

أترتدى أفخم ثيابك أمام مرضاك عن قصد أم تلك هى طبيعتك التى تعيشها؟!.

لماذا تبدو ذقون الأطباء دوماً مهذبة أو حليقة مثلك ؟!.. لعلكم تقصدونها كى لا تثير إشمئزاز مرضاكم.. عموماً أنا لا أكترث!..

لفتت نظرى تلك اللوحة الكبيرة فى مدخل عيادتك

(صياد فى قارب وسط البحر تتضارب به الأمواج فى عاصفة رعدية قاسية ..الشراع مهترىء ممزق..والقارب متمايل على وشك الإنقلاب..بينما يجلس الصياد منفثاً لسيجارته فى هدوء).

هل هى عن الغوغائية!.. هل الصياد رمزاً للنظام؟. للحرية؟. أوالسلبية!.. كيف جمعت كل هذه المتناقضات إثر رؤيتى للوحة واحدة؟!..أتعرف بأنى أشبه ذلك الصياد؟!.. أنا أستحق بأن أفكر لأجلى؟!.. أترانى أنسى نفسى؟!..ذاك هو أنا ياطبيبى!.. أحس على وجهى بكل صفعة ظلم.. ويرتجف جسدى حين يتملك الصقيع من فقير عار أمامى.. وقد أنهى حياة شخصاً بكلمة حكم بديهية من شفتاى.. أرأيت كم أنا متعارض!.. أنا أكثر الناس إختلافاً مع نفسى والأكثر حرصاً على الا تعرض شتاتها أمام الناس!.

قيل لى بأنك طبيباً نفسياً!.. أتعالج نفوس الناس؟!.. أتتلذذ ببكائهم على وسائدك الناعمة؟!.. أتزداد خبرة كلما حكوا عما فى قلوبهم؟.

أراك متطفلاً!. أتظن بأنك لى معالجاً ؟!.

أنا لا أظن!.. وأنا أثق فيما أظنه.. وأحترم ما أصل إليه.. وأحب على الأقل ما أجده لى منقذاً.. ورغم أنى لا أرى فيك رجائى إلاّ أنى سأحكى ..

أتريدنى ان أحكى؟.. أنا لا أهتم !.

■■■■■

(١)

بالأمس كانت لى قضية.. تتطلب منى حكماً.

رجل يقتل إنتقاماً من غريم له بعد أن تعاركا سوياً على إمرأة!..بدا وجه القاتل حليقا هو الآخر.. ربما ظننت أنه طبيب!.. هل بإمكانك تحديد هوية الشخص من مظهره؟!. هل أبدو لك بلحيتى كرجال الدين؟!.

أيكن حكمك صائباً فيمن حولك بمجرد النظر؟!.

المرأة بدت أشد من القاتل جبروتاً، رأيتها تجلس فى شموخ بين صفوف الجماهير والمحامين أمام المنصة تنظر بوجهها السافر وأهدابها الطويلة كمن كانت مستمتعة بما تراه من مصير القاتل

والمقتول لأجلها، لا ألوم القاتل لفعلته من أجلها، فهيئتها لا تخلو من رمق مثير يذكيها عند أى مراهق مكبوت أو عجوز مثلى فى فترة النقاهة، رمق لا أجدها قد تتخلى عن قليلاً منه لأجلى فى سبيل حكمى على صديقها، أه لو أضعها عوضاً عن ذلك المغفل خلف القضبان..هى المذنبه لا محالة!.. مؤكد بأنها أغوته حتى قتل.. فالمرأة هى الخطيئة الأولى!.. لكنى لا أحكم بعقلى هنا.. ولا حتى بقلبى.. وإنما أتخذ من قوالب القانون ونصوصه تشريعاً ومن بنوده حكماً.. ولذا فلا مكان لأحداً عوضاً عن أحد فى محكمتى!.. ياللمساكين!.

: أتظن بأننا أهدأ الناس ضميراً نحن معشر القضاة؟!..إنى حتى لا أعرف راحة البال!.. أحياناً تثيرنى نظرات أرملة عجوز تتودد لأجل أبنها الذى لا تمتلك غيره.. أراه مجرماً صعلوكا بينما هى لا ترى فيه سوى صورة الطفل الرقيق البار بها!.

تثيرنى كلمة طفل يتيم يدافع لأجل أمه العاهرة التى لا يرى فيها سوى شحنة العطف والحنان!.

أذكر نظرات طفلة صغيرة كنت قد حكمت على أبيها بالأعدام.. فأنتظرتنى خارج قاعة المحكمة.. وأقتربت منى فى خطى متمهلة ودموع منهمرة على خديها وصاحت فى وجهى قائلة: أتظن بأنه لا يراك؟!..أتظن بأنه ليس موجود؟!.

تظاهرت بعدم الإكتراث ووضعت نظارتى الشمسية فوق عيناى ثم

إنصرفت.. أظنهاكانت تقصد الرب!.. إعتبرتنى ظالماً لأنى حكمت بإعدام أباها.. وربما كان الرجل مظلوماً كما تظن، لكن القانون ياسيدى الطبيب لا يمنح للمظلومين عزاءاً ولا يعرف سوى الوقائع والشهود.. فماذنبى!...طوبى للمظلومين فى كل مكان..طوبى للمظلومين!.

لقد فكرت فى الرب الذى كانت تقصده..وقلت إن ربى لا يرضيه سوى ما يمليه على ضميرى.. لكنى تراجعت فسألت نفسى.. أتؤمن بالله ؟!.. أتشعر بوجوده حقاً كما يقول أئمة المساجد ورهبان الكنائس؟!..

: أتعرف ديانتى ؟!..

■■■■■

(٢)

لازلت أذكر جدى منذ سنين حين كنت فى الخامسة من عمرى.. أرتدى جلبابى الأبيض وطاقيتى الصوف المطرزة وفى يدى مسبحه صغيرة أحصى فصوصها مراراً.. بينما قدماى تلهث فى خطى متوثبه أحاول بها أن أوازى خطاه الواسعة.. كان يبدو صامتاً حينها، تتمتم شفتاه بكلمات لا أفهمها.. ربما كانت تراتيل أو آيات قرآنية!.. أدعية؟!.. حروف مضغمة لم أكن اعرف لها معنى حينها!

(اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل.. أن أذل أو... أن... أوأظلم... أن.. أو..)

بصوت خفيض لكنه مسموع يملك نبرة دفء وقورة.. وربما حاولت فى صغرى أن أكررها كما هى متقطعة مبهمة دون أن أعرف لها معنى!.. صوتى لم يكن يعلو بها.. وجدى أبداً لم يعترض علي طريقتى فى النطق!.. إنى حتى لم أسأله عن معناها.. يالجهلى .. أى حماقة تلك !.. كل شيء تعلمته إلتزمت فيه بقاعدة البديهيات.. وأظن بأنه كان منها الكثير مما يستحق المعرفة.. أعنى أنه كان حرياً بى أن أعرف عن الله ووجوده.. الصلاة وحركاتها وإتجاه قبلتها.. عن همهمات أدعية جدى التى لم تكن مفهومة وقيمة كتاب سماوى مثل القرآن!..ربما لم أفكر وقتها فى المعنى ذاته!.

: أتعرف ؟!.. إن مأساتى أنى لم أفكر!..وحتى بعد أن كبرت كانت هوة البديهيات قد إتسعت عن أخرها وأبتلعتنى.

ظلت فى رأسى هواجس قديمة من عبق الماضى..أذكر منها بأنى لم أكن أرى داعياً لأن يحدث إنقسام بيننا ونحن زملاء بالمرحلة الإبتدائية فى حصة التربية الدينية !.. وأذكر أنى فى المرة الأولى لذلك الحدث إنضممت مع مجموعة من المسيحيين زملائى وإنصرفنا معاً إلى حجرة مجاورة.. شككت حينها بأن شيئاً غامضاً يحدث.. فهناك جمعاً لا بأس به تركناه فى الفصل ورائنا!.. لكنى حين رأيت المعلم يتمتم بكلمات مكتومة بشفتيه قبل بداية الشرح علمت بأنى أعرف مايقول.. فلم يكن عندى شكاً بانه يتمتم بما يتمتمه جدى!.

: هل دين الله واحد مهما إختلفت أساليبه.. وما نحن فيه ليس سوى تضارب فى المذاهب؟!.

: أتراني متردداً فى تلك المسألة!..أتعرف بأنى هكذا منذ الصغر!.

ولماذا لا أكن أنا العاقل الوحيد بين الناس..فإذا كانوا جميعهم لايروا النور فهل يعنى هذا غياب الشمس؟!

: أعرفت الآن بأنى لم أكن مختلفاً عن ذلك الصياد فى لوحتك؟!.. عرفت الأن ماهى الغوغاء؟!.. إنها أن تؤمن بشىء وتدافع عنه دون تفكير ووعى ظناً منك أنها الصلاحية المطلقة التى منحك أياها ذلك الشىء ، بالرغم أنها بريئة منك!.

أتعرف فيما فكرت حين خاطبتنى تلك الفتاة الصغيرة بعد المحاكمة؟.

: هل الله موجود؟!...هل الدين هو الدين كما أنزل على أنبياؤه؟!.

أحياناً أشك بأن الناس قد إنقلبت من تقديس الله لتقديس رجال الدين.. إنهم لا يسمعون سوى كلمات جامدة موضوعة فى قوالب تهيبهم من الجحيم وعذابه وتزين لهم الجنة بمتاعها.. إنهم طائعون لمن يربى اللحية ويرتدى لهم عباءة الدين ويدعى بأنه الصواب.

أيكن حقاً ذاك هو الصواب ؟!

■■■■■

(٣)

أتذكر أحداث الزاوية الحمراء فى أواخر السبعينات..فى تلك الفترة كنت أكثر من الأن شتاتاً بين الخطأ والصواب.. وأذكر بأنى تقدمت من بائع مسيحى لأبتاع منه علبة سجائر.. فرفض منحها إياى بحجة أنى مسلم!.. وقد إنتبهت فى ذلك اليوم لما يحدث حولى، فالافتات معلقة فى جميع النواحى والآئمة يخطبون بالوعيد والقساوسة عند كل ناصية يجمعون الشباب المسيحى من الأزقة والحارات ليحاربوا أعداء الله والشباب منتشون بخمرة كلامهم.. الصلبان على أبواب البيوت والمصاحف مرفوعةعلى أسنة السيوف، مامن طريق تشعر فيه بالأمان! ، لو لم تسقط غدراً برصاص مسيحى فستسقط زوراً برصاصة مسلم.

رأيت دكان كبير لكهل عجوز مكتوب على بوابته

(لقد كفر الذين قالوا إنا نصارى)

وحين كنت خارجاً من صلاة العصر إستوقفنى بعض الفتية وأشهروا امامى أسلحتهم إفتعالاً للعراك.. فقلت لهم منصحاً :***(من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأخر أيضاً)***

فأجابونى قائلين :***(لا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم)***

ثم إنهالوا على جسدى ضرباً حتى تفجرت شرايين الدم من عروقى!.

أأنا خنزيراً وهم كفار؟!.. أم أنا الكافر وهم خنازير؟!.. من منا يحكم بتكفير الأخر؟!.. أتراهم نحن؟.. أم هم؟.. أم أن هناك شيطان مشترك يشعل النار بين طرفينا بإسم الدين؟!.. لكنى أتساءل كيف تجد الشياطين دلائلها من الكتب المقدسة؟!

: من يقرر الحلال من الحرام؟

: الله؟!

: ومن يحكم بما أنزل الله؟!

■■■■■

(٤)

فى دخولى سلك القضاء كنت فى الأربعين من عمرى.. أبنائى كانوا لازالوا صغار.. سارة فى الخامسة من العمر وحسام فى التاسعة بينما نادية لم تكن قد ولدت بعد.. إستقبلتنى سارة يوماً شاكية من اخيها.. ولم أكن حينها فى حالة مزاجية رائقة.. سارة تشكو بان حسام لطمها.. وحسام يدعى بأنهما يلعبان سوياً وأن لطمة الخد كانت جزءاً من لعبتهما.. سارة تزداد بكاءاً من ألم الضربة.. وحين سألت حسام..قال بأنه لطمها لأنها أضاعت الكنز الموجود أسفل شجرة الصنوبر!.. حسام يطالبنى بثمن الكنز..هذا إن كان عليه ألا يضرب سارة !..وسارة تطلب تعويضاً عن ضربها!.. وأنا حائراً بينهما لا أدرى بأى تشريع أحكم ولا بأى قانون.. إنى حتى عاجزاً عن البت فى قضية بسيطة فى حياتى الأسرية.. ولن

أنسى نظرات زوجتى عندما قالت حينها (فلتحكم بينهم..ألست قاضياً؟!)

:أترانى أستطيع ؟!.

تتساءل عن كينونة ذلك الكنز الضائع.. لكنك تصاب بخيبة الأمل حين تكتشف فجأه بأن الكنز لم يكن له وجود.. وان الشجرة لا مكان لها!.. أتستحق سارة إذن أن تنل لطمة حسام؟.. أيكن حكمك حينها يستحق التطبيق؟!.

: أقاضياً أنا بين الناس ومحكوماً عاجزاً فى بيتى؟!.

أتعرف بأنى أحياناً أبكى.. أقسم لك بأن ذلك المشهد يتكرر كلما سمعت موعظة أو قرأت أيه فى المصحف.. لدى نسخة من الكتاب المقدس وأحياناً أتفحصها وأتدارس من كلماتها، تعجبنى مزامير داوود.. ولا أرتاح يوماً إلا حين أسمع القرأن وأتفكر فيه قبل نومى.. أعشق قراءة الشيخ محمود على البنا.. قلبى يهدأ حين أسمعه!..

وكثيراً ماتدمع عيناى لأجل حالنا.. أقرأ فى الصحف عن أزمة الأقتصاد العالمى.. وسب الأسلام.. وإضطهاد الشعوب.. وإنتهاك حقوق الأنسان والأستعمار الصهيونى لفلسطين والوباء العالمى.. بينما أسمع فى خطب الجمعة عن صلة الرحم والصوم والزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. كلها كلمات متكررة.. أحاديث محفوظة.. آيات قرآنية يرددها البعض على الملأ مثلى بلا معرفة..

ولا شىء يزيدنى معرفة من تكراره.. ولا أجد له تطبيقاً يغير من حال الأمة!.. وكأنما مايدور فى أروقة المساجد وأحضان الكنائس بعيد كل البعد عما تجده فى واقع الحياة!..يتركون الظلم ويتكلمون عن أعداء الدين فى الداخل!.

لا.. بل هم الفتنة.. لكن.. من هم؟!.. هذا سؤالى الذى يزيدنى إضطراباً

: من المسئول عن ضياعنا؟!.. أتظنها نفوسنا؟!.. أنا أظن !

■■■■■

(٥)

أتعرف بأن أمى أعدتنى لأصبح داعية.. تمنت كذلك منذ تلك الأيام التى كنت أقضيها مع جدى.. تجلى ذلك واضحاً فى تربيتى الأولى..

حفظت أجزاء كبيرة من القرآن فى كتاب قريتنا.. وقرأت فى الدين بما يتناسب مع سنى.. وتابعت التاريخ الإسلامى مفسراً وأنا فى المرحلة الثانوية.. ولفت نظرى ذلك التعارض الكبير بين مانأخذه فى دروس المدارس وما تتكلم عنه كتب التاريخ !..ربما لم ندرس الحقيقة كاملة!.

قرأت أراء كثيرة وأفكار هدامه.. أعجبتنى الماركسية وأنا فى بداية المرحلة الجامعية وجذبتنى إليها كما جذبت الكثيرين.. وتركتها ثم أصبحت اشتراكياً.. ثم قلت لماذا نرفض الرأسمالية..

كنت مشتتاً بينهما جميعاً.

: أتظننى لهذا قد أخترت كلية الحقوق؟!.

ربما فعلت ذلك لأجد طريقى ؟!..لا تسخر منى ياطبيبى إن عرفت بأنى اتممت الخمسين الأن ولم أعرف لذلك الطريق معالم؟!.

:أتعرف انت؟!.

■■■■■

(٦)

: ماتصورك عن الحياه التى تود أن تعيشها ؟!.. أتستطيع ان تفكر دون أن تنسى الأخرين؟!..إن إستطعت فعالجنى!.

كيف تبنى حكماً شيوعياً دون ان تنسى الله؟!.

كيف تبنى الأشتراكية دون أن تظلم الطموحين وأصحاب رؤوس الأموال؟!.

كيف تبنى حكماً ديموقراطياً دون أن تتجاهل تفاوت العقول وجهل الملايين.. أترضى بمصيرك بين أيديهم؟!.

كيف تبنى دولة الأسلام دون أن تنسى نفوس الطامعين المتسربلة بعباءة الدين؟!.

كيف تكن دولتك بلا فتنة دون ان تنسى عقول المتعصبين؟!.

أتشعر مثلى بأنك ضائع بين المذاهب؟!.. راقصاً على وتر رفيع

يفصل الخطأ عن الصواب؟!.. مشتتاً كل الشتات رغم ثباتك أمام الناس؟!.

تجمع الشراذم الباقية من خبرات السنين فلا تجد فيها مايعينك؟.. أنا أشعر!.

لماذا لا ترد تساؤلاتى ياطبيبى الصامت.. لقد إتخذت من وقتك الكثير.. لكنى ظننت بأنك قد تجيبنى؟!.. أردت أن أحذو حذوك لأرتاح مثلك..أفى صمتك عجزك؟!..أرجوك..أيكن هدوء الناس مجرد تخمر وعطوب لما فى عقولهم؟!..أتود أن تعيش مخموراً مثلهم؟!..أتموت دون أن تدرى لماذا جئت ؟!.

: أتعرف جيفارا؟!..لا يهم ...لكن تذكر بأنه قال

(لا يستطيع المرء أن يكون متأكدا من أنه هنالك شيء يعيش من أجله، إلا اذا كان مستعدا للموت في سبيله)

: إن كنت مشتتاً مثلى فلا تدعنى أنصرف دون علاج..على الأقل لا تتركنى وحيداً!..شاركنى فيما يراود عقلى..أخلع عنك رداء الأستسلام والسكينة الملطخة بدماء الجهل.. لا تنتظر محررى العقول.. فهم لا وجود لهم ..نحن من نحرر أنفسنا.. أفتح عينيك مثلى لعلنا نرى معاً الحقيقة.. أتظن بان كونك طبياً قد يعفيك من المرض!.. قد أكون أنا الطبيب!.. ربما!

■■■■■

موسم هجرة الجراد

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأستاذ : هشام مدرس العلوم

أنا سها، تلميذة فصل ثالثة رابع، زرت حضرتك فى حجرة المدرسين فلم أجدك، وذهبت لمعمل العلوم فقالت مدرسة-لا أعرف إسمها- أنك مشيت، لماذا تمشى مبكراً ياأستاذ هشام؟!، أنا كنت أريد سؤالك فى شىء مهم، شىء يضايقنى جداً ويجعلنى لا أنام، وكلما تذكرته أبكى وأدعو الله أن يسامحنى عليه!..كنت اتمنى ان تشرح لى شيئاً عن الجراد، أنا من الأمس وأنا أبحث فى الإنترنت عن حياتهم وهجرتهم .. لكنى لم أجد جواب لسؤالى!.. سأشرح لك وأنت ترد... أرجوك ياأستاذ يجب ان ترد :

إمبارحه رن جرس المدرسة مبكراً، إنصرفنا كما تعرف قبل ساعة من موعدنا الأصلى، الجو كان حار جداً، ومدرسة الحصة

الأخيـرة قـالت إنكم تخافون علينا من الجـراد!، التلفـزيون يقـول أن أسـراب الجـراد سـتـصل القـاهرة فى خـلال سـاعـات وأنهـا وصلت الصعيد فى الليل.

:مـامـعنى كلمـة أسـراب يا أسـتـاذ ؟..وأين هـى الصـعـيـد؟.. وهل الجراد مؤذٍ لدرجة أن تخافون علينا منه ؟!.

لما خرجنا من المدرسة لم أكن أعرف شيئاً عن الجـراد، ولا أعرف كيف يكون شكل الجـرادة أصـلاً ! ، مـامـا بـالأمس حـذرتنى منهم، قالت أنه لو حدث ورأيت واحـدة فيـجب ألا أقتـرب منها، لأنهـا لو إنتبهت لى، فقد تختطفنى !.. وبرقت بعينيها وقالت أن لو واحدة فقط علقت بى فقد تسحبنى بعيداً عنها إلى أخر العالم !.

:أين هو أخر العالم يا أستاذ؟!.. أنت تعرف كل شىء مثل ماما... فهل ذهبت إلى هناك؟!...

المهم أنى لم أخف ، حتى بعد أن قالت زميلتى داليا التى تجلس بجـوارى فى الفـصل أنهم كـالصـراصيـر ولكن أكبـر وأنهم يزومـون هكذا :(فوووووووووو....فووووووووو).. لم أخف ، تصور؟! ، كنت متحمسة جداً لرؤيتهم!....

وداليا يا أستاذ هشام لها أخ إسمه حسن فى المدرسة الإعدادية التى أمـامنا، وكل يوم نمشى نحن الثـلاثة مع بعض حـتى البـيت، وإمبارح لما قابلنا حسن، كان معه بكرة خيط حرير كبيرة قال بإنه

سيصطاد بها جرادة، قلت لحسن أن الخيط الحرير ضعيف وأنه لو أراد ذلك فيلزمه حبال قوية، وأخبرته بما أعرفه وقلت له أنه لكى يصطاد جرادة فيجب أن نتشبث فيه جميعاً حتى لا تسحبه إلى أخر العالم! ، لكنه كان واثقاً من نفسه وجرىء ، وقال: (لا يهم، سأربط الخيط الحرير فى مقبض شباك أو عامود نور أو كتلة حجر ضخمه من أحجار الرصيف ثم أسحب الجراده ببطء)

ولم يكمل حسن كلامه حتى كانت الشبابيك والمحلات حولنا تنغلق فجأة، وصوت ترابيس الأبواب كان يجز بسرعة، الناس جرت نحو الرصيف ونحن معهم، داليا أشارت لأعلى وصرخت: (جاؤا! ...الجراد جاء)..ثم زامت بشفتيها مثلهم (فووووو...فووووو)

نظرت لأعلى...وحياة ربنا رأيت ألف جرادة أومليون !، كانت تسد السماء لدرجة ان لون السماء كان أحمر فاتح ليس أزرق أو لبنى كما نعرفه!... كان مخيف وتذكرت كلام ماما، أقول لك على سر يأأستاذ هشام

:أنا تمنيت أن تعلق بى واحدة منهم وتأخذنى بعيداً، تخيلتنى أطير بين السحاب، وانظر إلى بيتنا والمدرسة من السماء وأودع أصدقائى من فوق!.

وقررت أن أفعل ذلك وأن ألفت نظر الجراد لى حتى يأخذنى بعيداً !، وسمعت صوت حسن قرب الرصيف يقول بصوت عالى

جداً : (وقعت واحدة منهن).... تشجعت ، إقتربت منه وأقتربت داليا، أمسك هو بالخيط ،صنع عقدة صغيرة بسرعة ليلفها حول قدم الجرادة الساكنة، كنت أول مرة أراها فى حياتى، وقال بقال عجوز انها سقطت من الشجرة! ، عيونها كانت تلمع يأاستاذ، ولها أجنحة مثلثة طويلة، وقدماها مثل عيدان الكبريت، ولونها بالكامل وردى.. وردى فقط!، وكانت خائفة مثلى!... أو اكثر منى!، ولم أصدق عينى.. ضحكت وقلت أنه مستحيل أن ترفعنى هذه الجرادة الطيبة عن الأرض، ونظرت لحسن وكان وقتها يلف العقدة حول قدمها، وقلت له (ناولنى البكرة) ، لكز حسن الجرادة فى جناحها فمشت خطوة.. قال لها : (طيرى) ثم لكزها مره أخرى فإنتفضت، دارت نصف دورة، وأقتربنا منها جميعاً وقلنا لها فى صوت واحد :(طيرى)، فأرتفعت عن الأرض، الجرادة طارت يأاستاذ وطرف الخيط معلق فى قدمها، وكلما أرتفعت حررت لها البكرة، من حسن الحظ ان حسن كان معه بكرة أخرى ربطنا طرفى الخيط الأصلى مع البكرة الثانية وتركنا الجرادة تعلو، كلنا تبادلنا مسك الخيط، انا وحسن وداليا، درنا معها، كانت تشد يدى فأترك لها الخيط اكثر، أجذبها فتجذبنى وأرتفعت... والله العظيم شفتها فوق جداً، وصلت للدور الخامس فى العمارة التى بها محل البقالة، وشدتنا للأمام حتى إقتربت من صليب الكنيسه الضخم عند أول الشارع، وجرت

خلف أسراب الجراد التى بدأ عددها يقل، كأنها تريد الطيران معهم ، لكننا سحبناها عكس إتجاه السرب، بيتنا كان فى الناحيه الأخرى من الشارع، والجراد كله كان يطير ناحية الشمس.

:هل الشمس هى أخر العالم يأستاذ؟!...

أنا كنت أريدها ان تسحبنى هناك ، لكنها لم تستطع... وحسن كان يريد أخذها معه للبيت، صمم جداً على ذلك وعاندنا وعاند الجرادة التى كانت تحاول التملص من الخيط بأى شكل دون امل !، ، وقلت لحسن (يأأخى أتركها تطير براحتها)، لكنه رفض، قال لى انها جرادته وأنه صاحب الفكره وصاحب الخيط ، قاومته لفترة وتحايلت على أخته لكنه لم يتأثر!، وصعبت على نفسى الجرادة، قلت انها لو لم تلحق بزملائها فستتأخر، :صح يأستاذ؟! ...وإننا يجب أن نكتفى باللعب معها ، فزعقت فى وجه حسن وخدعته!....قلت له أتركها لألعب بها ثانية واحدة فقط، وأول لما أعطانى طرف الخيط، تظاهرت بأنى اجذب الجراده كما كان يفعل ثم تركت الخيط... فجأه... ليس غضباً عنى ، لكنى قلت لو أن الجرادة لن تطير بى، فعلى الأقل لا أتركها معى!.

:صح؟!.

وغضب حسن، وأحمر وجهه، وضربنى فى كتفى، وشتمنى يأستاذ! ، لكنى كنت فرحانة، وكنت أحس أن الجرادة أيضاً

فرحانة، طرف الخيط كان من الممكن أن يلتقطه حسن، جرى وراؤه، طارده حتى أخر الشارع ،ودار من عند الناصية ونحن واقفون بالشنط فى شارع المدرسة نضحك على منظره، وأختفى عنا هو والجرادة لدقيقة أو أكثر..ثم بعد فترة عاد مسرعاً أخذ من يدى شنطته بعنف، وكشر فى وجهى وجرى نحو الناصية، ذهبنا خلفه، ورأيت المنظر الذى من أجله لا أستطيع النوم ياأستاذ!، والذى من أجله كنت أريد ان أسألك!.

الجرادة كانت محلقه فى الهواء وطرف الخيط مشبوك بعمود النور فى الشارع، أسراب الجراد كانت تمر بها الواحد بعد الآخر، وكنت أشعر بانهم يتكلمون معها أو انها تتكلم معهم أو تشكو لهم منا أو تطلب مساعدتهم! ،ظلت تشد الخيط بعناد دون أمل، وشعرت أنى أريد أن أبكى، وتحايلت على حسن وقلت له أنها أكيد تتعذب، وقلت أيضاً (لو أنك تحب ربنا إقطع الخيط أو فك قدمها)، وإقترحت عليه أن نصعد للبيت المجاور للعمود ونمد يدينا نسحب طرف الخيط ثم نحررها ، وحن قلب حسن! ، وصعدنا العماره التى أمامها عمود النور، خبطنا على باب الشقة فى الدور الأخير فلم يرد أحد، صعدنا للسطوح، وقف حسن بجراءه فوق السور، مد يده نحو العمود حتى كاد يسقط من فوق، كانت الجرادة مستمرة فى محاولاتها للفلات من الخيط، ولو كان كلام ماما صحيحاً لسحبت

العمود فى قدمها، لكنها لم تفعل!، وفشل حسن فى الإمساك بالخيط، شعرت بالإحباط، حسن كان يشب بقدميه تجاه العمود دون نتيجة، السماء كانت تزرق فوقنا، أعداد الجراد تقل، اللون الأحمر كان يختفى كلما أخفق حسن حتى عادت للسماء زرقتها بالكامل!، وجدت داليا عصا طويلة فوق السطوح ناولتها لحسن بسرعة، فمدها نحو العامود، كان يحاول أن يلف الخيط حول حافة العصا ويجذبه نحونا لنفك العقدة من قدمها، كانت تفلت منه فيحاول معها، أحياناً كانت تهب الرياح فتزيح الخيط بعيداً حتى إلتقط حسن طرفه بالعمود، لف العصا به، وسحب بهدوء وهو ينط من فوق السور.. وفرحت، توقفت عن البكاء وأنا أبتسم... الجرادة أصبحت معنا، داليا صفقت، وحسن صاح منتصراً مزهواً بنفسه امامنا، وفككنا العقدة من حول قدمها، ولكز حسن الجرادة يأأستاذ كما فعل اول مرة، قال لها (طيرى)، فدارت حول نفسها على الأرض وكأنها تبحث عن شىء، وبدأت تستعد للطيران ،ثم لم تتحرك!، ولم نفهم شىء، حاولت بطرف أصبعى ان ألكزها فلم تستجيب، نفخت داليا فيها، قالت لنا أن الهواء ممكن أن يكون غير كافى لها كى تطير، ونفخنا معاً نحن الثلاثة فى نفس واحد نحوها، وقلنا مثل المرة الأولى: (طيرى)، ودارت الجرادة، وليتها ما دارت يأأستاذ... نظرت لى -أنا بالتحديد- لم تنظر لحسن ولا لداليا ،حدقت فى

عينى وشعرت أنها ستطير الأن، لكنها ظلت بلا حراك ، لمعت عيناها مثل الكريستال وأحسست حينها أنها ستبكى، وأنها تؤنبنى !، ولم تتحرك!، لم تدر، لم تطر ،لم تفعل أى شىء، الجرادة ظلت بلا حراك ياأستاذ هشام، وعيناها مثبتتان نحوى فى يأس، نظرت إليها، صوت حسن فى أذنى (طيرى...طيرى...الحبل مفكوك)...لكن الجرادة وكأنها ماتت...

: هل ماتت بالفعل ياأستاذ؟

من الأمس وانا أسأل هذا السؤال: لماذا لم تطير الجرادة ياأستاذ؟... لماذا؟

الظمآن

تستقبله الوفود فى بيت العائلة الكبير بعد عودته من أداء فريضة الحج ، وجهه ناصع وضاء يشع صفاء التوبة والطهارة، السبحة لا تفارق أصابعه الرفيعتين، تدور دورة كاملة فى أقل من دقيقة ولسانه لا يكف عن الذكر وسط الجمع، والجلباب الأبيض الناصع يهفو برائحة المسك كلما تحرك أو رفع يده ليمسح على رأسه الحليقه ....يمطره الزائرون بكلمات الترحيب والتهنئة، وهو متربع فوق الكنبة الأسيوطى العريضة عند مدخل الصالة، يتمتم بكلمات قصيرة بقدر السؤال، يلهج بعدها بعبارات أقصر من

الحمد والتسبيح ثم يهز رأسه بإبتسامة هادئة، وينهض الحاج شوقى متحاملاً على نفسه من الروماتيزم، يغيب فى حضن الغرفة المظلم لبرهة، يفتح شنطة الهدايا الكبيرة ثم يعود وفى يده المسابح والجلاليب يوزعها بسخاء على ضيوفه، أعطى لسليمان القهوجى جلباب أبيض غالى متمنياً له الهداية، ومنح الأستاذ حسانين وأبناؤه جميعاً زجاجات صغيرة من المسك، وإسدال حريمى لزوجته لأجل الصلاة، لم ينس جيران البيت وأصدقاؤه من شيوخ المسجد ومنح الشيخ سالم مصليه قطيفه منقوشه برسوم المسجد الحرام وعباءه مبطنه بقطن محلى طويل التيله أشتراها من تاجر سعودى بجوار الحرم الشريف، ويقول الحاج شوقى بفخار وهو يثنى ساقه اليمنى أسفل فخذه الأيسر، والسبحه تدور فى يديه (والله أحضرت معى من الحرم، جركنين كبيرين من ماء زمزم لأجل الروماتيزم)... ويبتسم الأستاذ حسانين فيقول بصوت رخيم:

: ماء زمزم لما شرب له

وتسرى كلمات الحاضرين بين التعجب والتسبيح ، ويعلو صوت الشيخ سالم فجأة وسط الجمع

: فى مكة فقط يا أستاذ حسانين!.

ويقول الحاج شوقى معترضاً

:ولكنه ماء زمزم يامولانا.. يارجل قل كلام معقول، فى مكة أستحممت منه فشعرت بأن عظامى قد لانت وأنتعشت.

ويهز الشيخ سالم رأسه الكبيرة بطاقيته المنقوشة ويؤكد مبتسماً

: فى مكة فقط ياحاج!.

: أواثق أنت؟

: أكيد.

ويسكت الحاج شوقى لبرهة يحنى رأسه ناظراً إلى سجادة الأرضية وهو يتمتم بالتسبيح ثم يرفع رأسه ويقول: ولكنه ماء زمزم ياإخواننا!

ويبتسم الجميع بعضهم لبعض، يقضون وقتهم مهنئين، ثم ينصرفون محملين جميعاً بالهدايا والمسك وفى داخلهم فحة الظفر ببركة الأشياء، وينهض الحاج شوقى عن مكانه، يصلى ركعتين ثم يذهب فى إغفاءة طويلة تمتد معه إلى ما قبل الفجر.

ينهض، يتوضأ ثم يمر بالصاله وهو يدس قدميه فى شبشب خفيف من الفلين، يباغته بعض الألم فى أعلى الظهر وهو يرتدى

جلبـابه الأبيض، يلفظ الضيق من فوديه، وبدون تفكيـر يميل قـرب الزاوية بجوار شنطة الهدايا، يصب كوباً من الجـركن ويقول: (اللهم إني أشـربه مسـشفياً به ، اللهم فـاشفيني) ثم يمسح ببـعض قطرات مـاء زمزم على رأسـه مكرراً الدعاء...كان يثق بصـدق الشيـخ سـالم ، لكن ألم الروماتيـزم كان شديد على عظامه هذه الليلة!

جنيه معدنى

فى زاوية إلتقاء إشارات المرور الثلاث - وسط الصهد المنبعث من السيارات - تجلس فتاة فى العاشرة بضفيرتيها المشعثتين ووجهها الأسمر، تحتضن علب المناديل فوق ذراعيها وهى تستظل بقرص الشمس!، تنظر بعين الحذر نحو عداد الإشارة الإلكترونية الحمراء، حين يبدأ العد، بالكاد تفرمل السيارات الفارهة عند الطرف متأهبة لإلتهام الطريق!، تراقب عداد الإشارة فى تحفز.

تنهض، تغزل الطريق جيئة وذهاباً فى الحارات الضيقة بين السيارات، تخبط بتحايل على زجاج سيارة تقف فى الصفوف الأولى، تشير لرجل أنيق فى الداخل .. يرتدى نظارة شمسية تبتلع

وجهه، تلح فى طرقاتها بإسلوب سمج فتنفتح النافذة، تلفحها برودة التكييف فى الداخل، صوت الكاسيت يخمش أذنيها، تتشمم رائحة المعطر التى تحفظها عن ظهر قلب بإنتعاش، تقع عيناها على دمية معلقة فوق تابلوه السياره بالداخل فتسرح قليلاً!، تمد بعلبة المناديل للرجل فى عجل، يقول وهو يعدل المرأة الجانبية - دون النظر إلي وجهها : (شكراً)... يزداد إلحاحها ، تتسارع كلماتها فى إستعطاف مصطنع :(والنبى ياأستاذ!)...تنغلق النافذة ببطء، تلقى الفتاة فى الداخل بعلبة المناديل والزجاج،على وشك الإنغلاق، يحبس كلماتها فى الداخل، يستشيط الرجل غضباً، يفتح النافذة، يناولها العلبة بضيق : (ربنا يسهلك!) ، تتناول العلبة بتأفف، تضع يدها على سن الزجاج :(هات جنيه!) ، يتضايق، ينفخ فى قرف، يلتفت لها: (إبعدى يدك عن الزجاج)... تتراجع يديها فى ذعر، يقلب الرجل فى درج التابلوه ، يلتقط جنيه معدنى من الداخل، يرميه فى يديها ثم يغلق النافذة بسرعة أمناً شر صهد الشارع،

تبتسم إليه وهى تنعش نفسها بالنظر إلى وجهه البارد المحبوس خلف الزجاج، تدس الجنيه فى أغوار جلبابها، ترمى بعينيها نحو عداد الإشارة وقد تعدى الثلاثين، تتملكها رهبة غريبة!، تبتعد عن سيارة الرجل الأنيق وهى فرحه برنة الجنيه المعدنى فى جلبابها، تستدير لمتابعة طريقها بين السيارات، تشعر بأن شيئاً ما ينقصها!،

تخبط على السيارة الأولى والثانية وعيناها حائرة بين عداد الإشارة وسيارة الرجل الأنيق صاحب النظارة الشمسية!، نظرتها الناعسة مشتتة، تحمل فى أعماقها مئات التساؤلات!، تخبط زجاج السيارة الرابعة، ينفتح الزجاج على مصراعيه أمامها، يطل وجه سيدة شقراء هادئة الملامح ، تنظر إليها فى إشفاق، الفتاة تمد إليها علبة المناديل وعيناها مأخوذة بعداد الإشارة، تنتبه إلى انها الثانية الخامسة والخمسون، تزهق ، تجرى من أمام الشقراء!، تعود أدراجها بين السيارات، تخبط زجاج الرجل الأنيق وهى تبتلع ريقها بلهاث حاد، تناوله الجنيه المعدنى ذاته، تقول مشيرة بسبابتها للداخل : (خذ الجنيه وناولنى العروسة من فوق التابلوه !) ، الرجل ينظر إليها لأول مرة، يبتسم ، لكن الإشارة تنقلب للأخضر فى غمضة عين، وتمر السيارت من أمامها كسيل جارف لا يمكن إيقافه، عيناها معلقتان بسيارة الرجل فى حسرة، تذوب أمامها فى واجهة الطريق حتى تختفى تماماً ، الفتاة تحتضن علب المناديل ، ترمى بالجنيه فى جلبابها وتدور إلى إشارة أخرى!.

العبيط

لا يداهمنى النوم ولا تقربه جفناى ويصيبنى مس من الأرق فأستلذ أرقى، وأتأمل قميصى المقلم الجديد وحذائى الأسود الضخم برباطه المتين فأتخيل وقفتى عند عطفة الحارة وأنا أرتدى زى العيد وألوح نحو المارة ببندقيتى الخشبية التى صنعها أبى خصيصاً لى، أنثر أمام بائع الحلوى قروش العيدية فى زهو وأتباهى أمام أصحابى بما جمعته من حصاد اليوم، وأحاول أن أحفظ نزاهة مظهرى حتى أطراف الليل، ويهمس جارنا فى أذنى ماأفهم به مقصده فنهرول نحو كارو سعفان العربجى، نداعب حماره الذى زينه بورق الكرتون الملون وزهور الياسمين حول رقبته وقد نقش على إحدى جانبيه إسمه، أرتاد مكانى بجانب سعفان فى المقدمة وتتكدس العربة عن أخرها بأطفال الحاره وبناتها، تتمدد الحارة أمامنا تمهد الطريق لموكبنا وأمسك بأعنة الحمار فيطلق نهيقاً فصيحاً يختلط بضحكاتنا العشوائية، وتسير العربة لتقطع الحارة طولاً وتدلف نحو المنعطف حيث الكورنيش، تطاردنا عيون المارة وأصحاب الدكاكين ونحن نتظاهر صائحين: (العبيط أهو)..فتستفز



الكلمة مسامع البعض ويضيق بها الآخر ويلتفت أخرون فى إبتسامة عابرة لا تضاهى نقمة الأخرين.. أصوب بندقيتى الخشبية نحو عسكرى المرور فلا يعبأ بى فأصرخ فى وجهه:(قف مكانك ياعسكرى)...فلا ينتبه.. وتتعالى الصيحات من خلفى مشيرة نحوه: (العبيط أهو)... فيذوب الرجل فى حرجه وأضحك عليه لإستفزازه ويباغتنا بفتح الإشارة فلا نتورع من نعته: (العبيط أهو).

السنون تطارنى وأنا أستمتع بعدها ، أحسب الوقت وأربى فوق عمر طفولتى أعمار وأعد العده لليل أت يخامرنى فيه الأرق بالرغم من أنه ليس العيد، تجرى السنون وتجرفنى معها وأخضع وأستسلم لها فى خنوع ويصيبنى ضعف البصر وثقل السمع وأنحناءة الجسد فأتشبث بالبقايا الواهنة منى فلا أفرق بين أيام العيد من غيرها وأسير فى الحاره كعابر سبيل، كهل عجوز عديم القيمة لا أميز تحيات الجيران ولا نداءات المارة، وأقف يوماً عند عطفة الحارة فألمح عربة الكارو ترنو نحوى فأبتسم وأترحم فى صدرى على سعفان العربجى ، تتكدس العربة بأكوام الأطفال بعضها فوق بعض، تتقاذف ضحكاتهم أمامى وبمنتهى العفوية أبحث بعينى عن طفلاً مثلى يحمل بندقيته، فيشير الصغار نحوى وأشير نحوهم، ويبتسمون لى فأبتسم لهم، وأرى ضحكاتهم تتزايد وهم يلوحون نحوى صائحين وأقول فى نفسى إنهم لا يسخرون منى وأعزى نفسى بحجة واهية ..أنى لا أسمعهم.

وجهان

من خلف خصاص النافذه المتآكلة، كان يراقب دوران الميدان، نظر إلى طوابير السيارات المتزاحمة كعلب الكبريت وأسراب الناس التى تشبه قوافل النمل، وقال الأستاذ حامد فى نفسه أن عمره من عمر هذا الشارع وأن الدنيا كلها تتغير والميدان نفسه يدور وهو مكانه يزن الوقت!...حجرة المكتب أكلتها الرطوبة، وطليت بالجير أكثر من خمس مرات فى خمس وعشرين عاماً ، والأن الرطوبه أتت على كل شىء والدهان القديم كشف عن ذاته مجدداً... ياألله!...حتى الدهان مثله لم يتغير! ، وسرح قليلاً وأفزعه صفير الغلاية ، تحرك بخمول ، سار فى غرفته الضيقه أميال حتى وصل ، صب الماء المغلى فى كوب الشاى، دس يده فى الجيب الجانبى من الشنطة، أخرج لفة السندوتشات الملفوفة فى ورقة جورنال، فكها، فرش بها المكتب، ثبت الورقة بكوب الشاى، وجلس... إلتقط سندوتش الفول

وقرن الفلفل، وتذكر أنه لم يكن أصلاً جائعاً! ، وعاد برأسه إلى الخلف، وقال فى نفسه أنه لم يجهز الغلاية ويفرش لفة السندوتشات إلا لتعوده على فعل ذلك، وخطر فى باله ان آخر مايذكره اليوم هو حادثة السيارة التى لمحها فى الصباح أمام باب الشركة، وأن كل ماعدا ذلك لم ينتبه إليه،لم يشارك فيه عقله إلا بفعل العاده والتكرار، وقال أن فى الكون سنن، وأن الفصول خلقت متعاقبة والليل لا ينجلى إلا ويتبعه النهار، وهو من خمس وعشرين عاماً وهو يفعل الأشياء ذاتها، يقابل الناس ذاتها ، حتى نذواته الجريئة التى كان يظن أنها مجنونة وخارقة لنظامه إكتشف مع الوقت أنها كانت تأتيه على فترات منظمة!، وأمن بحقيقة أن وجوده من سنن الكون وأن التكرار فى حياته كتعاقب الليل والنهار!.. وأزاح لفة الساندوتشات جانباً، إرتشف من كوب الشاى، سال ريقه...لكن الشاى نفسه بلا طعم، هل حفظه هو الآخر كما يحفظ زوايا المكان وأماكن الدفاتر وخيوط العنكبوت؟!...أضاف ملعقتين سكر ، السكر أيضاً مائع بلا طعم!..الحياه أصلاً بلا طعم ولا معنى!.

خبطتان سريعتان ، وإنفتح باب المكتب على مصراعيه، شاب فى العشرين أو أكبر قليلاً، ألقى التحية ودخل، تأمله بوجه جامد من زاوية الباب ، الفتى وسيم لكن نحيف، شاربه محفوف من الأطراف كموظفى الحكومة !... وقال الأستاذ حامد أن النجوم تموت لتولد

غيرها، وأن تباديل القدر مثل أوراق الحظ و الناس أنفسهم مثل عساكر الشطرنج، يتشابهون فى الشكل وربما فى الوظيفه أيضاً والسلوك!، وهو كان وسيماً فى الماضى، وربما كان نحيفاً أيضاً، ويذكر أن أول يوم جاء فيه إلى هذا المكان كان شاربه محفوف بنفس الصورة، وإنتفض جسده الضخم بضحكة مكتومة، نظر إلى ساعة الحائط وباغته الفتى بالقول : (موظف الإداره أرسلنى للإستاذ حامد فى المبيعات)... وأخذ لحظات ربما طالت عن الحد وهو يهش ذبابة وقال بجفول : (تقصد موظف شئون العاملين!)...ثم ناوله كوب الشاى، لم يمنع نفسه من مراقبته وهو يرشف منه مرة أو إثنان أثناء الحديث، وسمعه يقول أنه تخرج العام الماضى، وأنه كان يعمل فى مخزن للغلال بشبرا، وأن تعيينه فى الشركه جاء بسبب قريب له من جهة والدته فى المحلة الكبرى وأن إسمه عبد المعطى أو أحمد عبد المعطى تقريباً ولديه خبرة قليلة فى المبيعات بحكم عمله السابق.....

وذابت الكلمات مع رشفات الشاى ، وكان يشعر بأن أذناه قد إنسدت، وأنه لم يعد يسمع لا كلمات الفتى، ولا كلاكسات السيارات فى الميدان، وراقب قشره من طلاء الجير على وشك السقوط فأزاحها بطرف حذاؤه ثم عاد متاملاً الفتى، وتذكر نفسه أول مرة فى المكان ذاته، الغرفة مطلية بالجير الأصفر، والمكتب الحديد لم

يكن موجود، وأدراج شانون كان مكانها مكتبة صغيرة ومصليه فى أقصى الزاوية...وقال فى نفسه...لو دامت لغيرك ماجاءتك!.. وخبط على كرشه المنتفخ بهدوء، ونظر إلى كوب الشاى الفارغ على المكتب فقال للفتى (بالهناء والشفاء)..وباغته بالقول: (هل أعجبك الشاى؟)..ورد الفتى متأففاً (تسلم الأيادى...السكر زيادة حبتين!)... وقهقه فى داخله ساخراً دون أن يعلن عن سبب....وبدأ حديثاً ثقيلاً عن العمل ونظام التدوين فى الدفاتر، والفصل والتفنيد، وجدولة الواردات، وإضافة الضرائب، وتعجب أن الكلام لم يتغير وأنه يلقن الفتى ماسمعه منذ أعوام طويلة، وشعر بصدق فسلفته عن الوجود، وفكر بأن ماإستنتجه اليوم أولى بأن يدون ليعرف به الناس، وقال أن وجوده ولا شك ضرورى ليعيد القدر لعبته فى حلقه مفرغة أخرى ، وأن رايته التى إستلمها قد ان لها الأوان أن تسقط فى يد أخرى، وأن عسكرى الشطرنج الذى هو عبد المعطى ، سيفعل ماكان يفعله عسكرى أخر الفارق الوحيد أن إسمه حامد! ، وأن تباديل الزمان ربما تصدق حدسها فتعيد حامد من جديد فى عسكرى أخر، وأغلق الدفتر امامه وهو ينفخ.

ونظر إلى عين الفتى قائلاً بنبره أبويه خالصه: ماذا تريد من الوظيفه ياعبد المعطى؟..

ورد الفتى بسرعة أدهشته: أتزوج وأنجب أطفال.

وقال الأستاذ حامد وهو يراقب حركة الميدان فى الأسفل : ثم يكبروا؟...

: بالتأكيد...

: ستدخلهم مدرسة وتصرف عليهم من وظيفتك؟.

: أمر مفروغ منه.

وزم شفتيه قائلاً : حين يكبروا سيكون لهم وظائفهم..

: الله مقسم الأرزاق .

: الوظيفه حلم وأمان ياعبد المعطى ، ومكافئة المعاش ستكون كافيه لتزوجهم بها.

وهز عبد المعطى رأسه مؤيداً وكأنه ينتظر هذا الرد

وربت حامد على كتفيه ثم راودته فكرة أن عبد المعطى هو الأخر سيكون له حلقته التكرارية !، وأنه سيضيف للوجود ساعته الخاصة ونظامه الجديد!، وتخيله وهو يحمل لفة السندوتشات ويدخل بها المكتب، وتخيله أيضاً وهو يراقب الميدان مثله ويتابع أسراب النمل وعلب الكبريت ويراجع كشوفات الصادر والوارد، وتخيل إمضاءاته المتتالية على أوراق المشتريات ، وأدار رأسه وقال كالمخاطب نفسه : بعد عشرة أيام سأخرج من الشركة على المعاش!.

وقال الفتى بإبتسامة مبتذله : مبارك إن شاء الله.

وسأله برجاء مستتر : ماذا ستفعل بعد خمس وعشرين عاماً ياعبد المعطى؟.

ورد الفتى بالحماس ذاته : العلم عند علام الغيوب.

وقال بصوت مخنوق مردداً : والعمر أيضاً !.

وتزحزح عن مكانه ، سار خطوات نحو دولاب شانون ، أخرج دوسيه ضخم ناوله للفتى ، ثم سحب دفتر صغير من فوق المكتب ، غمس يداه فى الورقه الملفوفه ، أخرج ساندوتشين ، ناول أحدهما لعبد المعطى ، وقضم من الأخر قضمة إمتلأ بها فمه..ظل يلوكها طويلاً فى صمت وئيد...كانت عيناه متشاغلة بصورتيهما المنعكسه على زجاج النافذة ، شيئاً ما كان يدور بخلده !.

فعل الخطيئة

وقفت خلف البارافان العريض القائم عند طرف الغرفة، شاردة الذهن، لم يسقط الزواق عن وجهها بعد، شعرها مبعثر بعشوائية الغجر، تتنهد بحرقة دفينة وهى تراقب قطرات المطر تنقر زجاج النافذة، فى داخلها إنكسار فاحش المدى تأصل لتوه فى أنوثتها بألم لذيذ، أسندت ظهرها للحائط وهى تقبض بملأة السرير وتلف طرفيه حول جسدها العاري، إنكمشت قرب الزاوية، تذكرت الموقف فى قرف، ودمعت عيناها وهى تشهق دخان سيجارته، خيط الدخان الرمادى يرتفع عن السرير صانعاً غيامة حول مصباح السقف، الغرفة تشهد على خطيئتها معه...لا مفر، أثاثها يحدق فيها عن كثب، يفضحها أمام نفسها ، الأشياء تبدو لعينيها أكبر من حقيقتها، عملاقة، واضحة، قاتمة اللون ببجاحه مستفيضه جعلتها تخشاهم،

تدارت أكثر خلف البارفان وكأنها تحتمى به، سحبت طرف الملاءه لتدارى فخذها الأيسر بعيداً عن عينيهم وعينيه وكأنها عذراء لم تذعن إليه بعد، بينما هو ظل صامتاً ، يلحم السيجارة فى الأخرى بقهرة داخلية، تفاصيل الحدث لا تستكمل أمامه سيناريو معقولاً على أى حال،مثل كل مره!، يذكر فقط اللحظات الأولى مذ أن تخبط هى باب شقته، ثم ترددهما فى ردهة المدخل ومداعبته الخفيفه لها حتى يذوبا معاً فى القبله الأولى ، إستجمع داخله ما أضنته اللذه من خياله، إستند بجذعه فوق الوساده وهو يراقب سحب الدخان فى السقف ، إلتفت إليها وهى متلفعه قرب الحائط كحيوان ضال بلا مأوى ، مثيل القرف فى نفسها بدأ يغزوه بعنف ،ينطق به صدرها الهزيل ووجهها الشاحب وجسدها المصبوغ بلون بلاط الأرضية، تمتم بصوت مخنوق

: هذه المرة الأخيرة!.

فرمقته بعينين متورمتين من أثر الدموع ثم أغمضت جفنيها وقالت وهى ترتعد

: الشيطان لا يتوب.

ونهض عن موضعه عارياً ، سار تجاهها بضع خطوات ثم قال

: الضعف داؤنا.

: بل اللذه.

: اللذه هى الضعف.

فكتمت أنفاسها وقالت وهى تلملم ثيابها المبعثره فى الأركان

: ولكنها أقوى منى ومنك.

مدت قدميها للأمام وأبتلعتها ردهة الصالة، بينما هو وقف يخبط رأسه مرات وكأنه يكفر عن نفسه فعل الخطيئة ثم إستلقى فوق السرير وأغمض عيناه وهو يتضرع تجاه السماء بندم دفين.

فى اليوم التالى كان يحوم حول شقتها بعد العاشرة، يتقدم خطوات ويتراجع خطوة، هى تراقبه من عين الباب فى شوق جارف، تقرأ فى نفسها شغف حميم لرؤياه ، تمثلت أمامها الفردوس على شفتيه وألحت عليها شبق خفيف سرعان ماإستسلمت لبراثنه وفتحت باب شقتها، جذبته إلى الداخل وذابا معا فى قبلة طويلة المدى، إنتشت بخمرتها فلم تفق إلا وهى تجلس قرب البارافان تبكى ...الطقس كان بارداً لكن السماء لم تمطر فى ذلك اليوم!.


۸۸

الملكوت

وهى متلفعة بعباتتها القطنية، تتدثر فى خمارها الحريرى الناعم، أراها تجلس قبالة المشربية المنقوشة فى بيتنا القديم، تؤدى التسابيح الأخيرة بعد صلاة المغرب، المصحف مفتوح على مصراعيه، صوتها وهى تقرأ سورة الشمس يهدر فى أذنى:

(..وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ...)

يذوب صوتها بداخلى ، ينعش حواساً ويشل أخرى ، أنظر إلى السماء بلونها البرتقالى كلوحه زيتيه إنتهت للتو ولم تجف، الشمس تتوارى خلف شفق المغيب ونسيم الليل يرسل نفحاته بحساب.. نسمة بعد الأخرى، وأقترب من النافذة بحذر ويهيىء لى بأنه فى

هذه اللحظة تحديداً سيتجلى الله فى سماءه بوهج نورانى مهيب، بكل عظمتـه وقوته التى لا تفنى!، ألتفت إلى أمى التى أنهت تسابيحها للتو وأسأل فى فضول ممزوج بالعفويه (لماذا خلقنا الله؟)..وترد هى بثقة الحكماء (كى نعبده!).. وأتمادى فأسأل بعد لحظة صمت (ولماذا نعبده؟).وترد بالثقه ذاتها وقد أربد وجهها قليلاً (لأنه خلقنا!)... أهز رأسى براحة داخلية عجيبة!.

، يبهرنى صفاء السماء بحمرتها التى شملت الأفق بأكمله، وأتهيب رؤية الله أكثر، أتخيله وقد أطل لى من خلف سحابة رمادية كبيرة، وهج الشمس من خلفها على وشك الإندثار، أو نقطه بيضاء فى الفضاء السحيق لنجم فى آخر المجرة أوشك على الأفول، وأقول أن الله أكبر من السماء بأكملها، وأنه حين يظهر سيكفى لأن يمحو كل أثر لذلك الكون، وأسرح لحظة ثم أقول بأن كونه الواسع لن يكفيه وأن الله ولا شك فى كل مكان، أتلفت حولى، أتخيله مرة أخرى وهو يحدق لى من وراء الشمس ، وسط الأرض المنزرعة، خلف العمارات الشاهقة، أو بين حافتى الصليب فوق بيت جارنا القبطى !، صفحة القمر التى كثيراً مايهيىء لى بأنها وجه أبيض يبتسم دوماً، ألتفت إلى قبة الجامع الكبير عند الناصية، أرمى ببصرى بين حافتى الهلال فوقها، ثم أهبط وأنا أتأمل أصابعى وأدور حتى ألمح أمى والمصحف بين يديها، أتذكر إجابتها مجدداً ،

وألتقط أنفاسى وأشعر بإستكانة داخلية تروى بواطن قلبى، وأظل أيام أتهيب المنظر ذاته فى كبد السماء، وأنقبض كلما رأيت السحاب المبخر يمخر فى عبابها، كل يوم يأكلنى الفضول أكثر، تتكاثر الأسئلة فى رأسى، معنى الوجود، العدم، عقلى يبعث بظلاله إلى أبعد من الأسباب، أفكر..من الله؟، لماذا أنا أنا ولست أخر؟، لماذا أنا هنا ولست هناك؟، أتأمل وكلما تأملت إنهالت التساؤلات، تدور بى أراء الفلاسفة فلا أجد ملجأ ، بين هيجل وأفلاطون والغزالى وإبن رشد، تزلزلنى أفكار المعتزله قليلاً وتشغلنى بعض أفكار كانط وديكارت، وأشعر بأن فضولى الساذج فى الصغر لم أسده بعد، وأتوق فى نفسى إلى تلك الراحة القديمة التى أمدتنى أمى بها حين سألت أول مرة، لكننى لا أجدها!، أترقب المغيب بالخشوع ذاته، أسراب السحاب وهى تهاجر مواضعها وحمرة السماء وهى تأكل زرقتها وتحيل الأفق إلى سواد فى ملكوت الليل.

ويباغتنى أخى الأصغر بالسؤال يوماً (لماذا خلقنا الله؟)..وأدير بصرى نحوه، أتأمل فى عينيه نظرات الفضول ذاتها التى أحفظها عن ظهر قلب منذ عشرين عاماً، ويرتجف قلبى بجدالاته الفلسفية العقيمة مجدداً لكننى أرد بثقة (لنعبده!) ، وينظر لى وكأنه ينتظر إعجابى بتساؤلاته لكنى أحاول أن أوحى إليه بمدى بداهة السؤال فيقول (ولماذا نعبده؟!) ، فأربت على كتفيه وأنا أصطنع الإبتسام

فـأقول (بـالطبع...لأنه خلقنا!)، يهـز رأسـه لى فى قناعـه مـعـجبـاً بالرد، أبتـسم إليــه أنا الأخـر فـى ظفـر، وأتامل نور الفـضـول وهو يخفـو فى عينيـه حتى ينطفىء وأنا أعـرف بأنه سيـعاود البـزوغ يوماً مـا ، أشعـر براحته التى لا أجـدهـا ، ثم أحـدق فى السمـاء منتظراً لروح الله وهى تتجلى خلف السحاب!.

حلم نصف الليل

بعد أن يسكن الطريق ويغط ساكنى العمارات فى نوم عميق ، تظهر أخر السيارات عند مدخل جراج العمارة، يستقبلها العجوز ،ساعى الجراج،كزائر منتظر، يهرول خلفها ، يهبط المدخل المنبسط لأسفل، حافى القدمين، مهلهل الجلباب، يبدو ظهره من الخلف على ضوء كشاف الإناره كخيال المأته، يتهلل وجهه إمتثالاً وتتراخى خارطة التجاعيد على وجهه فى بشاشه وتظهر فى عيناه نظرات من الكبرياء الجريح وهو يصيح بإستعطاف مصطنع

: أهلاً يابيه ، نورت يابيه.

يحوم حول السيارة، يمسح جانبيها بطرف جلبابه القروى الكالح الذى أضناه العمل، ثم يحتضن زجاج النافذة الأمامية فى لهفة وهو يرنو بعينيه إلى طفلة الصغير الجالس فوق حجر قرب الزاوية وينحنى إنحناءه خفيفه تؤذن بالتأهب فور مقدم السيارة ذاتها ، ويصيح الفتى بصوت حلقى كالملهوف

: العربية يابا ، العربية وصلت.

وبين لهفته وصياح الصغير ، يعبس وينظر نحوه شذراً ثم يلتفت إلى السياره مكرراً كالببغاء

: نورت يابيه، أهلاً وسهلاً يابيه.

لكن البك لايمنحه سوى إبتسامه باهته المعالم بعد أن ينقل عيناه بينه وبين أبنه، ثم يكور فى يديه جنيهان ويدسهما بين أصابعه، فيهرول العجوز إلى الداخل ويعود مترنحاً بجردل صغير فوق يسراه ويجرجر خلفه خرطوم المياه العريض من الحنفية العمومية، يقبل بصدر رحب ، أو هكذا يبدو!، يلتقط من الجردل ليفة مهترئة ويدور حول السيارة، يدعك السقف بإصرار وكد، الأبواب، الإطارات، ثم يدير عيناه بين أروقة المكان ليأمن شر المتطفلين فيشير للصغير فى هدوء: (تعال ياسعد!).. يجلسه فى المقعد الأمامى وهو يلامس سبابته على طرف شفتيه محذراً الصمت، ويقبض الفتى على عجلة القيادة وهو يطرح رأسه إلى الوراء فى سعادة بينما يستمر العجوز فى الغسيل، يمزح مغمغماً فى إبتسامه ملؤها التعب وباطنها الأمل

: أغسل لك الزجاج الأمامى ياسعد بك؟، والعجل ياسعد بك؟والكشافات؟...أنت سيد الكل ياباشا.

والصغير يتضاحك بصوت مكتوم ، يجلس فى شغف ، يعبث بأنوار الكشافات وماسحات الزجاج الأمامية وعصا الفرامل اليدوية، يراقص عجلة القيادة يميناً ويساراً، وكأنه ينفس عن نفسه رغبة جامحة مكبوته ، وحين ينتهى العجوز، يزيح الجردل ويلقى بالليفه داخلها ثم يشدعلى كف الصغير ، يسحبها بالكاد من فوق العجله ويبتعد عنها كمن يبتعد عن عزيز غال لن يراه إلى الأبد، يختفى كليهما فى الربع الغائص عن المدخل ويعلو حوار خافت بين الأثنين

:لو نجحت فى الإبتدائية ستجلس فى عربة الأستاذ خليل الجديدة.

: بجد يابا...بجد!.

رسائل إلى مارى

فى مثل هذا اليوم من كل عام ، أفتح صندوق بريدى فى الصباح الباكر عن عمد ، أتحسس داخله بباطن كفى فتخرج يدى مكسوة بطبقة من التراب الرمادى الناعم ورسالة صغيرة فى حجم كف اليد مصنوعة من ورق محبب يشبه ورق الحائط السميك، تفوح منها رائحة عطر الهوبيجان النفاذة الساحرة، أجلس فوق الكرسى الخيزران بالقرب من سور البلكون هازئاً بشر نوبة السعال التى قد تصيبنى إثر لطشة برد قاسية فى شتاء فبراير، أفض بكارة الخطاب وأنا أغوص بين ثنايا عطره بأنفى.

رساله وحيدة أستقبلها منذ عشرين عام، رسالة وحيدة لا تخصنى ولا أعرف صاحبها، تخص جارتنا فى النافذة المقابلة لمسكنى، نبهت بواب العماره إلى هذه المفارقه فى بادىء الأمر لكن

البواب قال أنه لا يرى ساعى البريد حين يلقى رسائله و يهرب.

الرساله تقول (حبيبتى مارى..عيد ميلاد سعيد).

أعرف مارى عن بعد..أراها كل صباح وأنا أطالع جريدتى، تقف فى نافذتها وتسقى إصص الياسمين على الحافة، تعيش وحيدة مثلى ، ولا أعرف عنها سوى عشقها للنباتات..أشير نحوها فى الصباح وأنا أغمز بعينى المرمودتين من أسفل نظارتى فترد بالمثل، لماذا لا أنبئها بأمر الرسائل؟!.. أقول فى نفسى.. الرسائل لا تعنى لها شيئاً كما تعنى لى ، ثم إنها ليست فى إنتظار رسالة، فهى لا تهرول مثلى نحو صندوق البريد فى ذلك اليوم من شتاء فبراير ، وأقول أيضاً أن مارى لا تعبأ كثيراً ماإن كان أحدهم يذكر عيد ميلادها أم لا..إنها حتى لا تمتلك صندوقاً للبريد عند مدخل عمارتها!.

لدى الآن عشرين رسالة تحمل نفس الجملة، نفس العطر، نفس خامة الورق ، لنفس الشخص.

من ياترى يذكرها كل هذه السنين؟! ، شخص ما يخطىء دوماً العنوان ، لكنه خطأٌ رائع ، خطأ فذ يرفعه فى نفسى إلى منزلة لا تضاهيها عظمة، لا أعرف ذلك الشخص، لا أعرف له عنوان!... أسأل ساعى البريد بغتة بعد خمسة أعوام (من أين تأتى هذه الرسائل؟)...وينفى علمه بمصدرها ، فأسكت!.

ألمح ماري وهي تداعب زهور الياسمين بأصابعها فأتطلع لسؤالها لكني أتراجع مهابة كشف سري إليها، ستسألني عن السبب فلن أجيب!..سيخالجها الشك في أمري بالتأكيد..ستسألني عن رسائلها فبماذا سأرد؟!.

ماذا أنت فاعل أيها العجوز؟!.. إلتهمك الشيب ولاصقتك التجاعيد فما إنفصلت عنك وتقوس ظهرك وأنحني عودك حتى أذل رأسك إلى الأرض..ولا تتورع من فعلتك!..ماذا أنت فاعل؟!.

تطالعني ماري بوجهها البشوش الذي يعكس إشراقة الشمس عليه وكأنها منه، تبتسم بسمة حانية ودودة فأرد بالمثل ، وأتظاهر بمتابعة الجريدة وأنا أتهيأ في داخلي بأن عيونها تترصدني لتكشف أمري؟!..لكني أصر على عنادي رغم شيخوختي ،على الأقل لأملاء فراغي.. وتمر سنون وأجمع من الرسائل مايتعدى العشرين وأكثر.، ويأتي عام ليس الشتاء فيه كما عهدته، ورغم هذا فجسدي يرتعد منه، أتحسس صندوق بريدي وأنفض عنه أكوام التراب لأنل ضالتي.. (حبيبتي ماري..عيد ميلاد سعيد).

ألتقط قلمي بأصابع مرتعشة فأكتب بخط واضح عريض

(عزيزي الأستاذ (س)..السيدة ماري ماتت أول العام الماضي.. أدعو لها بالرحمة.. أعلمك الأن بالخبر لأنه ولا شك يهمك).

وتدمع عيناى فتدمى أهدابى بلهيب الوحدة وأكتب

(عــزيزى الأســتــاذ (س)...أتوسل إليك لا تقطع رســائلك إلى العنوان ذاته.. أرجوك إرسلها لى كما هى فى نفس اليوم بنفس العطر بنفس الكلمات..وسأبقى شاكراً لو تكرمت وكتبتها (حبيبى سليم..عيد ميلاد سعيد).

رغبة

بآثار قدماه الملوثتان بالطين يلطخ الأرض المبلطة بالسيراميك أمام محل الهدايا والتى لازالت ندية من أثر الغسيل للتو... عامل النظافة ينتفض كالملدوغ وهو يرى الرجل يخطو بقدماه فى تراخى مسحوباً برغبة الصغير الذى يجرجره من يمينه نحو الفاترينة، الصغير فى حماس طفولى يشير نحو ساعة ضخمة ترقد فى علبة قطيفة حمراء وسط المعروضات، الرجل يرمى بعيناه إلى الفراغ المترامى داخل المحل ثم يسحبهما ببطء وهو يتحاشى النظر فى عيون البائعين، أحدهم يرمقه بإستنكار !، عامل النظافة ينظره بقرف وهو يدير ناظريه بين وجهه وأثار أقدامه على الأرض... خمس خطوات مزدوجة لحذاء الرجل الضخم مطبوعة بالنعل على السيراميك وخطوتان سريعتان للصغير حتى الفاترينة، يطبع الفتى كفيه على الزجاج ، أنفاسه الساخنة تصنع طبقة خفيفة من البخار سرعان ماتختفى ثم تعاود الظهور، الساعة بين المعروضات ،رغم ضخامتها ،تبدو ضئيلة، لكنها تغازل عينيه منذ فترة!.

أحد الباعة يتقدم قرب المحل بأدب مصطنع ، يسأل الرجل : أتبحث عن شىء بعينه ؟.

الرجل يصمت كالخائف، يشد على كف الصغير منذراً بالرحيل ، يدور بحذاءه نصف دورة، والفتى يستسلم للوهله الأولى، لكن قدماه تتسمر أمام الفاترينة، يلتفت للرجل بإستعطاف : الساعة يابابا..

يصفر وجه الرجل، يبتلع ريقه، يلتفت إلى البائع المحملق فى وجهه بفضول: بكم الساعه ياعم؟

: خمسين جنيه......

الرجل للصغير وهو يسحب يده فى إنكسار يقبض عليها بقوة: نشتريها الإسبوع القادم.

الصغير للرجل فى عناد : كنا هنا الأسبوع الماضى !

عامل النظافة يرمقهم بغيظ ، أثار الأقدام على الأرضية أضحت أكثر عشوائية ووضوحاً ، الصغير يضرب الأرض بقوة كلما أنذره الأب بالرحيل ، البلاط المندى بالكامل تلطخ بين رغبة الصغير وإنكسار الرجل...

الرجل يتابع المسير دون إكتراث ، الفتى يشير بسبابته نحو الساعة فى حسرة وعناد: أنا عايز الساعة..

تتعالى صيحاته مكررة ، تتسارع ، ثم تخفو رويداً رويدا حتى تختفى.... تختفى تماماً حتى لم يعد يسمع سوى أنفاسه المتقطعة، أمام أعين الناظرين

ينصرف الأثنان عائدين..الرجل يخطو الأرضية فى خطوتين مزدوجتين... عيناه على وشك البكاء،

الفتى بكعب حذاءه الصغير يصنع خطان متوازيان متراخيان على الأرض، مشوهاً الأرضية تماماً..

سنة لولى

هناك، فى الركن البعيد الضيق من الغرفة المستطيلة ، حيث تصل ألسنة الضوء بالكاد، غائمه، يتيمة، تعبر الغرفة طولاً من فتحة الشباك وحتى صدر السرير المتهالك فى الصدارة، تلقى بظلها المعتم نافذه نسمة باردة ترنو فى أنحاء ركن الغرفه المنزوى .. تمد أختى الصغيرة بأصابعها نحو جدتى وهى تمسك منديلها الأبيض بيسراها تداوى منبت الدم فى لثتها إثر إنخلاع السنة الوحيدة الباقية من الصف القديم، أرميها بنظرة فضول عارمة، وأرفع عينى نحو وجهها فأرى فراغ معتم فى صف أسنانها الأمامى يصنع تجويفاً ظاهراً بشكل تشويهى مستفز، وتدقق جدتى النظر فى السنة الصغيرة بين أصابعها، إلتهاب عينيها يمنحها بالكاد قدره خافته على الرؤية، تقلبها بين أصابعها المعروقتان ثم تبتسم وتقول لأختى بصوتها المبحوح الخافت (أدفنيها فى أصيصة الصبار حتى تنبت فى فمك بسرعة) ثم تسكت ملياً فأضيق الخناق حولها وألتقط السنة اللولي من بين أصابعها، أتشاغل بمراقبتها برغم أنها لا تبدو غريبة على الأطلاق!.. أختى الصغيرة تجلس نصف جلسه

على حافة السرير، تغمس طرف المنديل موضع الجرح، وتعود جدتى للحديث فتغير من نصيحتها وتشير عليها أن تلقيها بعزم قوتها فى عين الشمس مع أول شروق وتقول جدتى مستطرده (أهمسى لها وقولى ، ياشمس ياشموسة خذى سنة البسبوسه وهاتى سنة العروسة) ...تكتسى ملامح إنبساط على وجه الصغيرة لا تنم عن فرح وإن كانت لا تشى بحزن على إنخلاع السنه ، تستهويها النصيحة

ونقترب، أنا وهى ، من النافذة، تتشبث بى وهى تصعد فوق الكرسى الخشبى قرب الزاوية، نراقب الطريق والمارة، قرص الشمس يلتهم رؤسنا فننظره بإعجاب، وإصص الصبار تتخايل لأعيننا من أعلى خميلة الياسمين التى تنثال من أعلى السطوح حتى موضع النافذة، وتطيح أختى بسنتها بعيداً فتبتلعها الشمس بنشوة ظامئة، ويهيىء لنا بأنها إختفت تماماً عن الوجود، وذابت أو تحولت إلى الأثير، وننكمش نحن إلى الداخل، نحو الركن الغائر من الغرفة، وتهمس جدتى فى أذنى باسمه كعاتها (حين تبلغ أختك السبعين ستصبح أسنانها فى صلابة العشرين)، ثم تتهادى خواطرها السادرة وتتمادى فى الضحك بعفوية وتسكت فجأة.. وكأنما تذكرت شيئاً ذات قيمة، شيئاً لم يكن يصح لها أن تتساه أبداً، تغلق فمها الخالى تماماً من الأسنان وكأنها تداريه عنى،وينكمش جانب وجهها كطفل موشك على البكاء ثم تربع يديها،وتستند بجزعها العجوزعلى صدر السرير وتذهب فى صمت رهيب

حلم القبة

سحب ياقة قميصه للآمام وشد أكمام البدلة من جهة الرسغ ثم إنضم إلى ثلة من الزملاء أمام مبنى القبة الكبير المواجه لبوابة الجامعة، نظر بسخرية نحو السجاد الأرجوانى الغامق المنسدل فوق السلالم ولاحظ لون القبة الكالح كسقيفة كوخ العتيق، حاول أن يبدو طبيعياً لكيلا يجذب نحوه الأنظار، الإنقباض المستتر فى قلبه يشعره بأن نظرات من حوله قد تحمل فى ألقها الشماته والإشفاق، تجنبهم ، رنا ببصره نحو اللافتة الكبيره المعلقه أمام المدخل فقرأها وهو يكتم أنفاسه فى غيظ (حفل تكريم الخريجين بكلية الحقوق)، حدق فيها لفتره ثم إنغمس فى حوار هش مع أحد الواقفين ليدارى تردده ، نظر إلى هيئاتهم التى لا تختلف كثيراً عنه، لا تضاهى أناقته ولا تلغى وجوده.

تسائل فى نفسه عن الداعى لحضوره هذا اليوم برغم أنه ليس من المكرمين، هل جاء ليشهد مكانه فارغاً بينهم، أم ليؤنب ضميره على حلم كبير ذهب ولن يعد؟!، ولولا المرض والحمى التى أصابته فى إمتحانات السنة النهائية لكان الأن يقف فى شموخ ، تستقبله الأعين فى لهفة ويحمله السجاد الأرجوانى فوق أريحتيه فى نعومة، لا يهاب نظرات الواقفين ولا همساتهم، ربما أصبح سيد اليوم دون منازع، سيصعد المنصه وتلتقطه فلاشات الكاميرات وهو يقبض بكفيه على أصابع رئيس الجامعة، ثم يلتفت إلى الجالسين أسفل القبه ويبتسم إبتسامة مؤدبة تحمل مزيجاً من السعادة والأمل، ستنعقد الألسن لرؤيته ويتعالى التصفيق، ذلك الحلم الذى كان يداعبه كلما مرق من بوابة الجامعة فى طريقه إلى ساحة الكلية، كلما قرأ ملخصات القانون الدولى، وتصفح كتب القانون الرومانى ، تمنى أن يصبح معيداً، وهرب الحلم منه مثل شربة ماء تسربت من بين أصابعه .

لمح زميله ناجى مسعود وهو يتجلى بوجهه المغولى العريض ، يرتدى بدله فاقعة اللون يوحى ذوقها بحقارة أصله، رأه يصعد زاوية السلم فأسرع تجاهه، مد يداه نحو رقبته ليعدل ميل الكرافته، قابل إبتسامة ناجى بالمثل، هز رأسه ولانت شفتيه لإبتسامة إعجاب تتستر على ألمه العميق وقال فى نفسه بصوت داخلى خافت : حتى

انت ياناجى!.

وفى بداية الحفل جلس فى المقدمة، أراد أن يصبح أقرب مايكون إلى حيث تمنى ، شعر بالبرودة فى أوصاله وهو يرى دفعة المعيدين بقسم القانون الدولى يقفون قرب حافة المنصة، حدق بهم، أشارإلى أحدهم من بعيد، وتراخت يده، دسها فى جيب الجاكيت، وتراجع بظهره إلى الخلف وفرد قدماه إلى الأمام ، ربع يداه فى شموخ وأنصت إلى هدير الميكروفونات عن طيب خاطر، نظر إلى الجالسين حوله دون أن ينبث، التصفيق يتعالى من حوله لحظة التكريم، وهو يقف فى صمود لا مبالى ، وحين ترامى إلى أذنيه إسم ناجى مسعود، هب واقفاً، صفق بحرارة كالباقين، نسى نفسه، واصطك كفاه بسرعة كمحرك طائرة على وشك الصعود وذاب فى بحر التصفيق، كان متحمساً!..

اهتز فى داخله لرؤية ناجى، ورأه بعينيه وهو يتسلم شهادة التكريم فإزداد حماساً وتمادى فى تصفيقه وسط القاعة، أفتر فاه عن إبتسامة ملتوية الشفتين، ثم نظر إلى الجالس فى الكرسى المجاور وقال: (ناجى مسعود صديقى..أعز أصدقائى) ، وتوقف عن التصفيق فجأة ونظر نحوه فى ذبول ثم أرتمى على الكرسى فى صمت.

طريق

جوار الشباك، الركن المنزوى فى الكنبة الأمامية ،تجلس وعينيها معلقتان بساحة الطريق، الشمس تخدد وجهها وثمة طراوة خافتة منبعها زاوية الشباك المجاور للسائق الذى يبدو متشاغلاً بصوت الكاسيت، الفتاة، بعنف ملحوظ، تخرج هاتفها الجوال من شنطة امامها، تتردد، تطيل النظر إلى شاشته التى تضىء بإصرار فى صمت، الهاتف يرتعد فى يدها وهى بخوف تعيده إلى مخبأه.

سيدة أربعينية تقمط منديل فلاحى حول رأسها، على حجرها طفل فى الخامسة، الطفل يتابع الفتاة ودون تعليق يدس نفسه فى صدر أمه، الفتاة تغوص بخواطرها فى رحم الطريق، تبدو مترددة، منعزلة، خائفة، بين لحظة وأخرى تسحب طرف الإيشارب الملفوف حول رأسها وكأنها تدارى شيئاً، الفتاة، للمرة الثانية، تنتشل

الهاتف من داخل الشنطة، تنفخ فى ضيق، ثم ترد بصوت غشيم متمسكن (والله العظيم الجواب معى ياعم إبراهيم، حتى أنت لا تصدقنى!...قل لهم أن الجواب معى !).. المرأه تنتبه هذه المرة، تغمز بجانب شفتيها وهى تتشاغل بمداعبة الصغير، والفتاة وهى فى أوج إنفعالها تسقط شنطتها على الأرض، الرجل العريض مبثور الوجه الجالس بجانبها يتفاجأ، يتلهوج دون سبب ثم ينحنى متاهباً للمساعدة لكن الفتاة فى حركة سريعة تلتقط الشنطة ثم تلملم ياقة قميصها وهى تحيط رقبتها بطرف الإيشارب و تردد باكية (لن يصدقونى ياعم إبراهيم إلا لو رأوا الجواب ، عدوك يتمنى لك الغلط !، أنت تعرف وأنا أعرف).

ثم تغلق الهاتف، لا تلتفت إلى الجالسين إطلاقاً ، تعاود النظر من الشباك وكأنها تبحث عن شىء بعينه، وجهها يقطر حمرة قرمزية تحت لسعة الشمس ، ثمة حسنة بنية تظهر عفواً بين ياقة القميص وحافة الإيشارب أعلى الكتف ترقط رقبتها العاجيه البيضاء، السيدة الجالسة أمامها تربت على قدميها (ربنا سيفرجها)، والفتاة بنظرة ندية لا ترد، بالكاد تتصنع الإبتسام وهى تسحب عينيها خلسة مروراً بالجالسين ، من الشنطة يباغتها صوت إهتزاز اخر يسحبنا جميعاً، حتى السائق يهدىء من صوت الكاسيت!، تترامى الأذان نحوها، وهى، بالعنف ذاته،تضغط الزر ، تردد بنبرة تهكمية

ساخطة (أنتم لا تساوون ، كلكم كلاب ، لم يطمر فيكم لا عيش ولا ملح وأنا سأربيكم ، الجواب معى ....أنا فى الطريق.....ربع ساعه أو أقل...) وبنبرة أعنف (ربنا ينتقم من الذى كان السبب)،أتلاقى مع عيون السيدة الأربعينية،التى سرعان ما ترمينى بكلمة (رجال ما لهم أمان!)، وأهز رأسى مبتسماً دون رد!،وينفخ الرجل المبثور (ما ضاقت إلا وفرجت)، وينطلق صوت مبحوح من الخلف (الواحد مننا ثقيل حتى بين أهله وناسه)، والفتاة لا ترد، تتمتم بصوت غير مسموع، تتأمل الناس فى الخارج، تبدو غير مكترثة بالركاب، يباغتنا إهتزاز الهاتف من جديد، تتعلق بها الرؤوس ، تلتقطه الفتاة، تكممه بعيداً عن فمها وهى تلتفت إلى السائق (يمينك ياأسطى لو سمحت)...تنزل صاحبة الإيشارب من السيارة، تغيب بعيداً حتى تختفى كنقطه حبر فى قاع بحر، السيدة تلتفت للرجل المبثور بإستعطاف (مسكينه!) ، الرجل يهز رأسه (ربنا على الظالم)، والسائق وهو يزيد من صوت الكاسيت (البلد باظت!)، أتلفت إلى الكنبة الأمامية، ثمة ورقة بيضاء ملقاة على الأرض!.

طيارة ورق

أراه يمرق أمامى، متعثراً فى شبشبه الصغير ذو العلامة التجارية المميزة، يسحب دوبارة الطائرة الورقية تجاهه قبل أن تبتلعها السحب، يقاوم عزم الرياح وإصرارها على إنتشالها منه...هوجة الرياح قاسيه هذا اليوم، السماء تمج رذاذاً مخيفاً والطائره لا تثوب إلى رشدها، تراوض عزمه، تجذبه إليها فيحاول أن يسترد توازنها، لكنها تنفعل وتثور، أرى زيلها يترنح من فرط الثورة، أشعر بها كطائر مسكين يودع قفصه بإصرار بعد محاولات مضنيه فى الهرب، وألتفت إلى محمود،أخى الأصغر، فأقول

: أرخى لها الدوبارة، اتركها تعلو

يتردد لكنه يطيعنى ويلحم بكرة الخيط خاصتى بدوبارته، ونترك

لها فرصة لتفر

طائرتنا الورقية حلقت حتى بدت أمامنا كنقطة صغير فى بحر السماء الواسع، إبتعد إلى ماوراء العمارة الكبيرة عند الناصية، وأستدار بها محمود، فناطح سماعة المسجد الكبير، يرخى لها الخيط عن آخره، وفجأة يشد ببراعة وحذق... أحياناً أشعر برغبة جامحة فى ان أفعل مثله، لكنى أخاف من نصائح والداى، أتخيله وقد صعد فوق السطوح فجأه ورأنى وأنا أمسك بزمام الطائره !، سيطاردنى بصوته المقذع، سيتهمنى بإهمالى للدروس، قد ينقطع عنى المصروف لأيامى، وقد يواجهنى لأسابيع مقبله بوجه عابس كئيب ، أقترب من محمود فأقول

: الميزان معوج

ويرد دون أن يلتفت

: لا يهم ، الرياح شديدة.

وأتحرك خطوات نحو بئر السلم لأراقب أى حركه مريبه ، أو شبح صاعد، ثم أعود فأمسك بطرف الدوباره ، وأهمس فى أذنه

: الشبابيك من حولنا مفتوحة، والجيران تراقبنا، قد يشى أحداً بنا.

فيرد بسخرية

: سينقطع عنا المصروف ثم ترجع ريمه لعادتها القديمة.

وأغبطه على حماسته ، وألتفت إلى خصاص النوافذ التى تحملق فينا بعيون مبهورة، أطلب منه طرف الدوباره وأنا أتمنى أن يرفض كى أقاوم رغبة الخوف الجامحة فى صدرى وأقنع نفسى أن عجزى يكمن فى قلة حيلتى ، لكنه يرضى ، يعطينى طرف الدوبار وعيناه تمسك بالطائره و أختفى أنا وراء البرميل الكبير، أجذب الطائرة نحوى، أفعل تماماً مثله ، أقاوم وأتراجع خطوه ثم أعود فأتقدم للأمام، أرتقى عشة الفراخ ثم أهبط عنها، وأزحف خطوات قرب السور، وهو بجانبى يمطرنى بإرشاداته المتتالية، يقترب منى، يقبض بكفيه على طرف الدوبار، ونجذبه سوياً ، الفرحه تملأ قلبى، أوصالى تزغرد بحرية لم أعهدها فى نفسى من قبل، وأنظر نحو سلم السطوح فجأة، فأنتبه إلى شبح أبى واقفاً على عتبته، ينظرنا فى حنق دون أن ينبث ، يقف أخى الأصغر مكانه بعزيمة بينما أنا أتسمر خلف البرميل فزعاً، يصمت لسانى، وينسلت الخيط من بين أصابعى، والطائرة تبتعد على سجيتها..وتبتعد أكثر.. ، ثم تختفى بين السحاب، ويصرخ أخى فى وجهى مؤنباً غير عابئاً بمهابة أبانا

: أنت ضيعت الطيارة!..ضيعت الطيارة!.

محمود لم يتمكن من الألتحاق بالكلية الجوية بعد الثانوية العامة ويعمل الأن بمجال البورصة، وبفضله إنتقلنا للعيش فى العمارة الجديدة عند أول الطريق ، بينما أنا أبحث حتى الأن عن وظيفة حكومية، تهيىء لى دخل ثابت ، ومعاش مضمون.

التشبيه

عمر كامل حليم

٢أراه أمام محل للأدوات المنزلية بالقرب من محطة الأتوبيس، يقلب بين البضاعة المفروشة فى الخارج كمن يبحث عن شيء ما وسط الأطباق البلاستيكية والجرادل وعلب الصابون، يقلب إحداها ثم يتركها نحو الأخرى، وأنا لا يشغلنى وجهه كثيراً!، سرعان ماأتركه واتابع العربات القادمة نحو المحطة، أنتظر اتوبيس ينقلنى إلى وسط البلد، لحظات وأشعر بظله خلفى ، يتأمل وجهى كأنه يعرفنى! ، تجذبنى ضحكته المألوفة لى ، أحاول شحذ خيالى باحثاً عن اسمه بين دفاتر رأسى لكنه بعيداً عنى!.

أمسك بكتفى، أحتضننى بشدة، وهو يردد: (أنت فاكرنى؟) ، وأدارى نسيانه بإبتسامة صفراء باردة، أقول بإصطناع ملحوظ :

(كيف الحال؟..وأخبارك؟)، ويمسحنى بعينيه طولياً ويقول ومقلتاه مصوبتان تجاهى بالضبط: (تزوجت وعندى فاطمه وحسين)، وألمح أتوبيس ضخم يسد زاوية الشارع فأزيحه جانباً، يسألنى : (وانت؟)، أفكر فى بساطة السؤال وطول الإجابة، لكنى سرعان ماأختصر الرد : (تركنا عابدين من زمان ، وأنا موظف فى شركة المياه)، ويسألنى وهو يضيق عيناه : (تزوجت؟)، وأنفى بهز رأسى، فيمط شفتيه ويسكت للحظه وهو يتابع حركة أتوبيس وهو يخنق الشارع، ويقول مستطرداً : (فاطمة فى الإعدادية، وحسين سيدخل المدرسة بعد عام)، وأقول مجاملاً : (ربنا يحميهم لك)....ثم أتابع بائعة جرائد ترشف كوب شاى بلذة ، وشله واقفون أمام عربة فول جهة اليمين، وتتشلنى كلماته من جديد : (كبرت ...ما صدقتك لما قلت أنك لم تتزوج!) ، ثم كالمخاطب نفسه: (العمر يجرى يارجل!).

ثم يعود لحفاوته ذاتها متابعاً، من كلامه أخمن أنه كان يرافقنى فى المدرسة الخديوية، وأننا كنا زميلين فى فريق المدرسه لكرة القدم، يستمر فى الحكى وانا أتابع أقدام السائرون وهى تنحت الطريق وعقارب الساعة فى يدىى وهى تعتصر الوقت! ، وجهه المألوف يجذبنى، لكنه ضائع هناك، أفتش عنه فى رأسى لكنه لا يفصح عن اسمه أو عنوانه ، يقبع فى ركن غائر وسط الظلام دون

كلمة، والرجل أمامى يسبح فى ذكريات بعيده ، جامع أزبك ، ومولد السيدة زينب ، ومجرى العيون، ومغامراتنا بمولد سيدى زين العابدين... لكنى والرغم من ذلك أظل صامتاً، أتمسك بإبتسامة سخيفة لا تسمن ولا تغنى ، وهو يسكت قليلاً فى إنتظار الرد، ويقول بحسره كمن تذكر شيئاً : (كانت أيام حلوة) ، وأقول وأنا أتعجل الرحيل فى داخلى: (أه والله!) ثم يتابع هو ، يسرد غير املاً فى ان أتذكره، كأنه كان يود ان يحكى وأنا كنت أغوص بعيداً ثم أعود، يستفزه ذلك بالفعل، يوصينى: (لازم نتقابل مره ثانيه، لازم أشوفك)، وأنا أهز رأسى مؤيداً : (بالتأكيد).... يدير وجهه عنى بقنوط ويلملم أشياءه بتملل، ثم يرفع عيناه نحوى بثقل ويقول برجاء مستتر: (ألا تذكرنى بجد؟!)، يزفر نفس طويل وببشاشة مذهلة يربت على كتفى ثم ينصرف حاملاً أشياؤه البلاستيكية، وأنا على عجل يلتهمنى الأتوبيس، أجلس جوار الشباك، ألمحه سائراً على الجانب الموازى للرصيف، متهدل الجسد، سارح، ومتعجل للغاية، أنظر لوجهه الطفولى الذى نحتته السنون، وشعره المصبوغ بالبياض ، وأتذكره ! ، أتذكره تماماً وكأنه كان معى بالأمس!........

عمر كامل حليم ، زميل المدرسة الإبتدائية، ألتهم نفس طويل كالظمأن، وتتساقط صوره أمامى الواحدة تلو الأخرى، أزفرها من

سقف ذكرياتى وأبتسم، أخرج رأسى من شباك الأتوبيس باحثاً عنه فلا أجده، وأتذكر باننا سنتقابل قريباً واتذكر أيضاً بأنه لم يسألنى عن عنوانى أو حتى رقم التليفون !.

يوم إنتخاب الرئيس

هناك حينما يتثاءب الطريق عن طلعة الشمس وهى تلقى بظلالها عند حافة الطوار، وقت أن تطأ الأقدام أرض الشارع البكر منذ ليلة الأمس، يجلس عبد الرحيم بجسده المدملج وسط الباقين، منكمش الأوصال، مستأنساً لطنين الذباب حوله، مستعطفاً لشعاع الشمس وهو يلفح رأسه فى قيظ الحر، يستوحش عرقه الذى يغرق فيه كمداً وهو يتابع الغائدين من حوله متوثباً لنظرة امل قد يلمحها فى عين أحدهم ، أمامه المطرقة العريضة ملفوفة مع الأزميل الصلب بنصله المدبب الذى ميزه بعلامة من شريط اللحام الأزرق قرب المؤخرة.

يجلس وسط طابور طويل من الأجساد المتلفحة بالجلابيب الكالحة ذاتها يقابلها طابور من المطارق والأزاميل ذوات العلامات المختلفة على إستعداد دائم لأى عمل يصبح فيه إستغلال العضلات هو الشرط الأول ، يجلسون كل صباح قرب ناصية الطريق ذاته،

يبحثون عن فتات الرزق بين الأيادى ،لا يعرفون ماذا ينتظرهم اليوم كما لم يعرفوا كيف مر الأمس!.

وهرش عبد الرحيم فى أصابعه المقشفه البارزه من طرف الشبشب الجلد، وتثائب وهو يجلس متسانداً فوق قطعه من الطوب ثم إلتفت إلى الجالس بجواره وهمس بلهجه صعيديه غليظه

: كم الساعة يا حسنين؟

وأزاح حسنين طاقيته القطن فألتمعت صلعته تحت بريق الشمس وقال وهو يهش الذباب عن وجهه

: الأرزاق بيد الله ياعبد الرحيم لا تتعجل الرزق.

ثم أردف قائلاً

: خيمة الإنتخابات الكبيرة نصبت قرب الشارع الرئيسى ، الزحام هناك كيوم الحشر، يوزعون لحم ضأن كرماً من المرشح الجديد.

وسرح عبد الرحيم فى الأفق لفترة، ونهض عن مكانه إثر قدوم عربة نقل كبيرة، خرج منها مقاول ربعه قصير فتل شاربه بأصبعيه ، ثم أشار نحوهم قائلاً

: أريد ستة أنفار.

نهضوا جميعاً عن مكانهم ينفضون التراب ويحملون المطارق والأزاميل عن الأرض، وهرول عبد الرحيم معهم نحو الصندوق الخلفى للسيارة، سارع بالإندساس بين الصفوف، عافر همته، وحارب هاماتهم بكوعه الغليظ ، وشمر جلبابه ثم تحامل على كتف أحدهم بجسده العملاق وصعد، إطمأن للحظة بأنه قد ضمن قوت

يومه، وتنهد فى راحة وهو يفترش أرض العربة بينما الأخرون يصطفون بجانبه ، وصرخ المقاول بصوت عضلى خالص

: سنهدم سور المدرسة القديم قرب مصنع الكراسى ، وجبة الغذاء لكم مجاناً، وأجرة اليوم عشرين جنيه.

وأثارت كلماته لغط الجالسين للحظات إنتهت بالصمت، ونظر المقاول فى الركن البعيد من العربة نحو عبد الرحيم، وأخرج يداه من جيب الجلباب وهو يدير خاتم فضى حول خنصره وأمره بالنزول، وإنتفض جسد عبد الرحيم، أفتر فاهه عن دهشة ثم خبط صدره مفزوعاً وهو يقول بزعيق مهتوك

: أنا ياحاج؟!.

فهز المقاول رأسه فى صمت ثم قال

: جسدك سمين يبتلع نصف العربة...مكانك يحتمل ثلاثة أنفار.

وتسمر عبد الرحيم فوق العربة، كان يرى الشمس وهى تشتد فى أوجها، أذان الظهر سيهدر بعد قليل، لن يجد بداً من العودة إلى البيت والعيال خالى الوفاض ، وقال مستعطفاً

: إعمل معروف ياحاج ...أبوس يدك؟

وزعق المقاول

: إنزل!.

: سأعمل مايفعله ثلاثة رجال.

وتمتم الجالسون فيما بينهم، وإرتفع صوت حسنين متململاً

: لا تكبر الموضوع ياعبد الرحيم، قلت لك الأرزاق على الله....

إنزل ياأخى طالما الحاج قال لك إنزل.

ولكزه المقاول بعصاه الغليظة ، فنهض وهو يمسح العربة بجلبابه، ويتركها مكرهاً، ووقف فوق الرصيف بينما صعد ثلاثة من ذوات الأجساد النحيلة قوية الهمة، نظر إليهم ، كان يتمنى أن يتراجعوا أو أن يفسح له مكان فى العربة يكفى ولو لنصف جسده العملاق، لكنه لم يحدث! ، وسمع أزيز المحرك يخرط فى أعصابه، وأنحنى جانباً وهو يرى العجلات تعصر الأسفلت تحتها ، وتنطلق إلى الأمام، وطن فى أذنيه صوت إبنته وهى تطلب كشاكيل المدرسة، ومصروف زوجته لأجل الطعام ، وتخيل ليلته والجوع يقرض أحشاء رضيعه ، ورأى أمامه صورة ابنه تلميذ الإعدادية وهو يذكره بقطعة الشكولاته التى رأى إعلانها فى تلفزيون الجيران ، وتساند على الحائط وعاد إلى جلسته ، عملاق لا حول له ولا قوه ، نظر إلى الأزميل والمطرقه ، فكر فى بيعهما هرباً من إفلاس اليوم ، لكنه خاف الغد ، فكر أن يداريها خلف ظهره ويقترب من الناصيه يمد يداه عن مضض سائلاً أهل السبيل ، لكن بدنه إقشعر حين تذكر أقاويل الناس عنه ، رجل موفور الصحه ، غليظ الشارب ويطلب الصدقه... ياللفضيحه ، قد يمر إبنه وسط زملاء مدرسته فيرى أباه العملاق شحاذاً ، كيف سيمتلك الجراءه ليواجهه بعدها؟!...مستحيل..صرخ فى الحال ، ثم نهض عن مكانه ، سار عابساً فى الشوارع يبحث عن ملاذ، تفحص واجهات البيوت والدكاكين لعله يلمح كومة من الدبش أو الرمل تحتاج سواعد متينة

لحملها ، أسطح العمارات حيث اوناش الطوب تصعد وتهبط ، أحياناً مخازن الأخشاب الكبيره قرب الشارع الرئيسى تحتاج إلى عمال لأجل تحميل العربات ، وتهيأ له للحظه بأنه أثناء دورانه فى فلك الطريق قد يعثر على قطعة نقود سقطت سهواً عن جيب صاحبها ، أو ورقه صغيره من فئة العشرة جنيهات تستطيع ان تسد حاجته، لكن اليوم كان مملاً راكداً على غير المألوف، وأخذته قدماه عند الشارع الرئيسى وتذكر ماقاله حسنين عن خيمة الإنتخابات، هرول ناحيتها ولم يرى أحداً من المرشحين بين هامات الواقفين ، إقترب أكثر ، وبهره سقف الخيمة الكبيرة ظله المدبب الممتد من اول الشارع وحتى الميدان ، وزغللت عيناه قطع السجاد الأرجوانى الفخيمة التى تصبغ لون الأسفلت المتأكل ، شبكات الإنارة لم تضاء بعد لكنها تكسو واجهات البيوت بأكملها، أصوات الميكروفونات تشرخ طبلة الأذن ، السماعة الكبيرة تتفوه بصوت رنان (تحيا مصر وعاش الرئيس)...لم يكن يهتم كثيراً بالإنشاد معها كما يفعل الباقون ، كان شغله الشاغل هو البحث عن رغيف الضأن ، ربما كان كافياً ليسد حاجته، إقترب من عسكرى كان يقف جوار عمود عند البوابه

: أين يوزعون اللحم يادفعه؟

وإتسعت إبتسامة العسكرى وهو ينظر إليه بزراية فقال

: الوليمة إنتهت يابلدينا...كل سنه وأنت طيب

فعاد خائب الأمل ، أصابته حمى اليأس بعد أن أكلت الشمس

رأسه، وأنزوى فى ركن بعيد ثم سحت عيناه بالدموع ، فكر أن يعود أدراجه للبيت لكن منظر الأبناء وأمهم كان يؤرقه ، أثر على نفسه أن يتركهم يموتون فى منأى عن ناظريه بدلاً من ان يرى الجوع يفتك بهم أمامه ببطء وهو عاجز عن الحركه ، وتفكر ملياً ، وأنفجرت فكره فى رأسه ، بدت له كنسمه خريفيه فى يومه المشمس تهلل بها ناقضاً عن نفسه ثقل اليوم ، وأمسك الأزميل الحاد بين قبضته وسحبه ببطء ، ثم أقترب من عطفه صغيرة ضيقه ، خلع الصديرى من أسفل الجلباب ولثم به وجهه فلم يظهر سوى عينيه الغائرتين، ثم ظل متربصاً فى الظلام لفتره ، وهو يغرق مرتعداً فى عرقه، كانت يداه ترتعشان ، قلبه ينتفض كلما مر عابر سبيل ،وفى حسبة سريعة كان يميز بين الوجوه ، أنتقى من بينهم واحداً لمح شبحه من بعيد كان يسير فى خطى مقدامة يبدو فى هيئته كموظفى الحكومة ، إستبشر برؤياه، وإستنبط من وجهه تعابير البشاشة والثراء ، وخرج من جوف الظلام ملثم الوجه كقاطعى الطريق ، كانت يداه تترنح بالأزميل، وضغط على كتف الرجل بيسراه فأزاحه بعنف نحو الزاويه وغز سن الأزميل فى بطنه ثم تصنع نبره غليظه قائلاً فى تهديد مشبع بالرجاء (قف مكانك).

وأنتصب الرجل فى زهول ، لم ينطق بشىء ، إستسلم نهائياً ليدى عبد الرحيم المرتعشة وهى تتحسس جيوبه، وكأنها لا تعرف مرادها! ، عبد الرحيم نفسه لم يكن يعرف ماذا يريد! ، كم يحتاج من المال ليسد قوت اليوم ، وتسائل بصوت ضميرى دفين وهو يضع

يده فوق جيب الجاكيت : (ماذاعن الغد ياعبد الرحيم؟...ستحتاج مالاً لأجل الغد) ، تفكيره مشتت ، وبين أن وأخر يصيح فى الرجل المنكمش فى بدلتـه الكتـانيـه المقلمـه (إثبت مكانك..لا تتحرك)...تحتاج عشرة جنيهات ياعبد الرحيم...خمسه للغذاء وأثنان للعشاء وثلاثة لكشاكيل المدرسة...ثم يدس يده فى الجيب الجانبى ويقول مكرراً فى لهوجه... وثمن الشيكولاته ياعبد الرحيم...لا تنسى الشيكولاته..بكم الشيكولاته؟...ونظر فى وجه الرجل وشخط (بكم الشيكولاته؟)....وتحجرت الكلمات فى فم الرجل ولم يرد.... لم يرد أبداً ، ظل ثابتاً وحين غمس عبد الرحيم يداه فى الجيب الخلفى أخرج المحفظه، كان الصديرى على وجهه قد إمتص عرقه الزائد تماماً ، وإنفرجت أساريره وهو يقبض على المحفظه بين أصابعه الغليظة ، ثم هرول بعيداً ، كانت الشمس تلملم أشعتها عن الشوارع ، وعبد الرحيم يقف هناك فى نفس المكان الذى غادرت منه عربة النقل بزملاؤه يفتح المحفظه على مصراعيها ، يقلب بين أركانها، لكن فرحته لاتكتمل ، يغمض جفناه ثم ينظر نحو الشمس ويضحك ضحكه مصطنعه يرتج لها جسده اللحيم ثم يلقيها على الأرض فى خيبه ويقرفص بجانبها وهو يدس رأسه بين كفيه...ومن بعيد يتعالى صدى الميكروفونات (تحيا مصر وعاش الرئيس).

الفهرس